أسلوب الحكيم فى بيان النبوة

سمات وتحليل

دكتور

عوض محمد الحولى

مدرس النقد بكلية اللغة العربية

جامعة الأزهر — بإيتاى البارود

مقدمة :

الحمد لله حمداً يوافى نعمه ويكافئ مزيده ، اللهم بـــك العـــون ومنـــك الهداية وعليك التكلان .

وأصلى وأسلم وأبارك على سيدنا محمد الذى أوتى الحكمـــة وفصـــل الخطاب ، ورضى اللهم عن آل بيته وأصحابه وأحبابه والسائرين على دربهم إلى يوم الدين .

وبعـــد

فإن أسلوب الحكيم هو أحد طرائق خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، وهو طريق ممتلئ بالإرشاد اللطيف لكل من المخاطب والسائل إلى الأوْلى بهما والأليق بحالهما .

لذا فهو فنّ له من اسمه نصيب ، فالحكمة والرفق هما شعار هذا الفن ودثاره، ففيه نهج لمسالك الحكماء فى التوجيه والتذكير بما هو أوْلى وأجدر .

وأسلوب الحكيم – كذلك – طريق من طرق الكلام الدالة علـــى ذكـــاء المتكلم وسرعة بديهته وحسن تخلصه فى بلاغة آسرة ودليل تمكنه وفصاحته وتملك الكلام وانقياده لمنشئه .

كما يُعدّ أسلوب الحكيم من لطائف المعانى بخروجـــه علـــى خـــلاف مقتضى الظاهر وباعتبار صرف المخاطب وتوجيه السائل إلى الأنفع والأوْلى على وجه بلغ الغاية فى التأديب وعدم المواجهة ، فصار لـــه فـــى القلـــوب الموقع الحسن والمذاق العذب .

ومـــــن ثَـــمَ

فقد يممتُ وجهى شطر البيان النبوى لدراسة هذا الأسلوب فيه عازمـــاً على سبر أغواره وتجلية سماته البيانية وتحليلها مع التركيز على بيان أهمية ما لفتَ البيانُ النبوى عناية المخاطب أو السائل إليه من أين جاءت ؟

١- مدخل إلى أسلوب الحكيم .

٢- مع الإمام " الطيبى " فى رحاب أسلوب الحكيم .

٣- من السمات البلاغية لـــ " أسلوب الحكيم " فى بيان النبوة .

وقد ذيلت البحث بخاتمة ضمنتها أبرز النتائج ، وفهرساً للأحاديث محل الدارسة وآخر للمراجع والمصادر .

فإن أكُن قد وُفقت فالفضل لله والمنّة ، وإن تكُ الأخرى فمـــن نفســـى وحسبى أنى اجتهدت وأسأله تعالى ألا يحرمنى ثواب المجتهدين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

معوض محمد الخولى

مدرس فى قسم البلاغة والنقد

المبحث الأول

مدخل إلى أسلوب الحكيم

تحرير المصطلح :

<u>الأسلوب الحكيم أم أسلوب الحكيم ؟</u>

شاعت التسميتان فى بطون الكتب ولكل واحد منهما دلالاتها . فصفة الحكمة فى التسمية الأولى " الأسلوب الحكيم " مُنصبّة على الأسلوب (وجعل الأسلوب حكيما مجاز وضده الأسلوب الأحمق) . (١)

وعليه فالأسلوب فى هذه التسمية هو المنظور إليه والمراعى جانبه .

وأما التسمية الثانية " أسلوب الحكيم " فالصفة متجهة للمتكلم ، والحكمة هى وضع الشيء فى موضعه الأليق به ، على حدّ قول الخطيب (والحكيم مَنْ يضع الشيء فى محله) (٢) .

فالتسمية هنا مراعى فيها جانب المتكلم ، مبرزة حكمته حين عمد إلى هذا الأسلوب وولج بابه ، مرتقباً بمخاطبة فوق ظاهر الحال إلى ما هو أنفع له وأوْلى به .

ولا تخفى ما فى هذه التسمية " أسلوب الحكيم " من ومضات نفاذ البصيرة وتمام الحكمة وعلوّ الذوق وجمال التلطف من المتكلم بمخاطبه .

ثم إن هذه التسمية تضع مصطلحنا على رأس الفنون البلاغية التى مدار النظر فيها على المتكلم .

---

(١) تفسير البيضاوى ٣٠١/٢ " عند تفسير قوله تعالى " **يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم..**) البقرة ٢١٥

(٢) الإيضاح ١٩٧ .

بخلاف " القصر " مثلاً فمنظور فيه إلى حـــال المـــتكلم والمخاطـــب والواقع وبعكس " الفصل والوصل " فإن مدار النظر فيـــه لا المخاطـــب ولا السامع وإنما مقتضى الحال فيه هو الأسلوب .

ولعل ما ذهبتُ إليه هنا يدل عليه تقديم الجاحظ له بقوله :

(ومن الكلام كلام يذهب السامع منه إلى معانى أهله ، وإلـــى قصـــد صاحبه) (١) .

تعريف أسلوب الحكيم :

هو " تلقى المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مـــراده تنبيها على أنه الأولى بالقصد ، أو السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيهاً على أنه الأولى بحاله أو المهمّ له " (٢) .

وعليه فأسلوب الحكيم يشتمل على قسمين :

(١) تلقى المخاطب بغير ما يترقب .

(٢) تلقى السائل بغير ما يتطلب .

ويحسن بنا قبل الشروع فى تجلية معالم كل قسم منهما فى بيان النبوة أن نشير إلى أن أسلوب الحكيم يرجع الفضل فى إرساء قواعـــده – وإن لـــم يُسمّه – للجاحظ ، فقد أورده الجاحظ فى " البيان والتبيين تحت باب من اللغز

---

(١) البيان والتبيين ٢/٢٨١ . مكتبة الخانجى . ت أ/ عبـــد الســـلام هـــارون . خامســـة ١٤٠٥هـــ – ١٩٨٥م .

(٢) المطول ١٣٥ وما بعدها ، الإيضاح مع البغية ١/١٦٠ . مكتبـــة الآداب ١٤١٢هـــ ١٩٩١م .

والجواب " (١) وعرضه عرضا يدل على ثاقب نظره ونفاذ بصيرته وذلك بكشفه عن جوهره ومغزاه من خلال الأمثلة والشواهد التى تنتظم قسميه .

بينما يرجع فضل تسمية المصطلح إلى السكاكى (٢) .

ويذهب غير واحد إلى أن هذا الأسلوب يُعرف عند الإمام عبد القاهر بالمغالطة (٣) وذلك لكونها (مغالطة حكمية لطيفة ، حيث لم تَقُم على المواجهة الصريحة المكشوفة ، بل قامت على الإخفاء واللطف والطرافة ، مراعاة للأدب والذوق) (٤) .

نظرة فى تسمية أسلوب الحكيم بالمغالطة :

ويطيب لى أن أسجل هنا تحفظى على تسمية أسلوب الحكيم بالمغالطة – مهما بُررت هذه التسمية من انطوائها على المغالطة بلطف وظُرف وعدم جرح المخاطب بمواجهته كفاحاً – وذلك لعدة اعتبارات منها : وقوع أسلوب الحكيم فى بيانىّ القرآن والنبوة ، ونحن ننأى أن نصف كلام الله وكلام رسوله – ﷺ – بوقوع المغالطة فيهما .

---

(١) البيان والتبيين ١٤٧/٢ .

(٢) مفتاح العلوم ص ٣٢٧ تعليق نعيم زرزور ط : دار الكتب العلمية ، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها د/ أحمد مطلوب ٢٠٠/١ ط المجمع العلمى العراقى ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

(٣) الإيضاح ٤٦ ، بغية الإيضاح ١٦١/١ هامش ٣ شرح عقود الجمان ٢٩ ، معجم المصطلحات البلاغية ٢٠١/١ ، خصائص التراكيب ٢١١ ، علم المعانى د/ بسيونى فيود ٢٤٢/١مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ط أولى ١٤١٩/١٩٩٨م .

(٤) علم المعانى ٢٤٢/١ .

ثم إنهم نسبوا هذه التسمية إلى الإمام عبد القاهر ، وبالتأمل الدقيق نجد أن المغالطة الواردة فى كلام الإمام جاءت تعليقاً منه على ردّ ابن القبعثـــرى للحَجّاج وليس تسمية للمصطلح ونص عبارة الإمام هى :-

(قال له الحجاج لأحملنك على الأدهم يريد القيد ، فقال علـــى ســـبيل المغالطة : ومثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب) (١) .

فكلمة المغالطة مُنْصَبّة على وصف كلام ابن القبعثرى لا توصـــيفا أو تسمية للمصطلح (لأن هذا الأسلوب لم يكن له هذه التسمية زمن عبد القاهر ، ولأن عبد القاهر ليس من عشاق التسمية) (٢) .

ثم إنه لو استقام فعلاً أن الإمام عبد القاهر كان يقصد بالمغالطة أسلوب الحكيم فهذا محل نظر ومما يستدرك على الإمام عبد القاهر (٣) .

أسلوب الحكيم من أى علوم للبلاغة ؟

يدخل أسلوب الحكيم تحت علم المعانى من حيث اقتضى المقام فائدتـــه بينما يدخل تحت علم البديع من جهة توريثه الكلام طرافة وحســـناً وظرفـــاً وملاحة (٤) .

بلاغة أسلوب الحكيم :

أسلوب الحكيم من أفانين القول الدالة على حدة ذكاء المتكلم وحضـــور ذهنه وسرعة بديهته وامتلاكه ناصية اللغة وما تمتلئ به نفسه مـــن معـــان

---

(١) دلائل الإعجاز ١٣٨ مكتبة الخانجى ١٤١٣هـــ / ١٩٩٢م . ط ثالثة . تحقيق .

(٢) الحركة الأسلوبية د/ عبد الرازق فضل ص ٦٨ سنة ١٩٩٦م بدون ط .

(٣) وهذا لا يقلل ولا يقدح فى ريادته – ﷺ للبلاغة ، وقد استدرك عليه قبل هذا تعريفـــه للمجاز والذى خلا من اشتراط القرينة .

(٤) ينظر : مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ٤٦٣/١ .

متداخلة بدليل قولهم عنه (وهو مما يورث الكلام ملاحة ولا يشجع عليه إلا كمال البلاغة) (١) .

كما يدل كذلك على جميل أدبه وحسن ذوقه وكـريم تلطفـه وترفقـه بمخاطبة حين لم يشأ أن يجرح مخاطبه أو سائله بصريح المواجهة وتنبيهـه على خطئه أو اهتمامه بخلاف الأولى .

والأسلوب بهذا مُبين عن التراحم والتواصل والتناصح بـين المـتكلم والمخاطب حيث يأخذ الأول بيدّ ، الثاني ويقيل عثرته ويلفـتَ نظـره إلـى الأليق بحاله ، شأن (الطبيب الرفيق يتوخى ما فيه شفاء العليـل طلبـه أم لا)(٢) .

والمتكلم حين يورد كلامه هذا المورد فإنه يتحلـى سـاعتها بـأخلاق النبوة، التى لم تكن تواجه النـاس بالعتـاب (٣) ، أو تصـارحهم بخطـئهم مصارحة وكأنها تقذف بها فى وجوههم قذفاً .

وكم يكشف أسلوب الحكيم بهذا عن تربية البلاغة للـذوق وإرهافهـا للحسّ ؟!

وبعـــد

فهذا قسط يسير يكشف عن نصيب المتكلم من بلاغة أسلوب الحكيم .

ولكن هل للمخاطب نصيب من بلاغة هذا الأسلوب ؟

---

(١) التبيان للطيبى ٤٩٠ط . عالم الكتب .

(٢) شرح الطيبى على مشكاة المصابيح المسمى " الكاشف عن حقائق السنن " ٤٨٧/٢ – تحقيق د/ عبد الحميد هنداوى ط: مكتبة نزار الباز – مكة ، الرياض

(٣) انظر : فتح البارى – ابن حجر العسقلانى – كتاب الأدب – الباب الثانى والسبعون .

نصيب المخاطب من بلاغة أسلوب الحكيم :

زيادة على ما يفهم بالفحوى من الكلام السابق – من كون المخاطب هو المستفيد الأول من أسلوب الحكيم – فأننا نصرح هنا بأن هذا الأسلوب من شأنه لفت انتباه المخاطب ، الأمر الذى يعنى تجدد نشاطه ومحوّ السأم عنه ، وذلك من حيث كون أسلوب الحكيم كالحسنة تأتيه ولم يرتقبها ، فتقع من نفسه الموقع اللائق ولها فى قلبه النصيب الأوفى بما يترتب عليها من لذة المباغتة وحلاوة المفاجأة ، واستطابه التأثير والنفوس مجبولة على الهيام والشغب بكل ما جاء على غير توقع أو حدث بغير ترتيب ، على نحو قول الشريف المرتضى (واللذة التى لم تحتسب ولم ترتقب يتضاعف بها الالتذاذ والاستمتاع) (١) .

ثم إن أسلوب الحكيم يعد طريقاً من طرق تربية العقول ، ومسلكاً من مسالك لفت الأذهان إلى صرف العناية وتوجيه الاهتمام إلى الذى هو أحسن وأنفع ، بدلاً من تبديد الطاقة وقدح الذهن فيما غيره أولى منه .

ومنوط بكل باحث بلاغى أن يُجلّى هذا الدور لأساليب البلاغة ، ليستيقن الشاك فى أن للأساليب وظائف تربوية واجتماعية ... ويزداد المؤمن بهذا إيماناً ولم لا ؟ وهى جزء من اللغة التى هى كائن اجتماعى حىّ .

كما تبرز بلاغة هذا الأسلوب من حيث إضاءة جوانب المعنى وحواشيه إضاءات هادية كأنها نواقيس تدق على ما يجب أن يلتفت إليه وتوجّه عنايته قبله من كريم المعانى ولله درّ السكاكى حين أبان بلاغة هذا الأسلوب بقوله :-

---

(١) طيف الخيال للشريف المرتضى ص١٤،١٥ ت . محمد سيد كيلانى ط . مصطفى الحلبى سنة ١٩٥٥م .

(وإن هذا الأسلوب الحكيم لربما صادف المقام فحرّك من نشاط السامع ، سلبه حكم الوقور وأبرزه فى معرض المسحور ، وهل ألان شكيمة الحجاج لذلك الخارجى وسل سخيمته – ضغينته – حتى آثر أن يُحسن على أن يسيئ غير أنْ سحره بهذا الأسلوب ، إذ توعده الحجاج بالقيد فى قوله " لأحملنك على الأدهم " فقال متغابياً " مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب" مبرزاً وعيده فى معرض الوعد ، متوصلاً أن يريه بألطف وجه أن امرءا مثله فى مسند المطاعة خليق بأن يصْفَد لا أن يُصَفِّد وأن يعد لا أن يوعد)(١).

وغير خافٍ أن أسلوب الحكيم من أنصع الأدلة على شرف هذه اللغة ومن أوضح البراهين على عبقريتها ، حيث تُسعف المتكلم فى أضيق المواقف وأحرج المآزق فإذ به قد خرج من ذلك كله برقة الكلمات وعذوبة الأسلوب ولطف المأخذ وحكمة التوجيه .

المقامات التى يرد فيها أسلوب الحكيم :

ولذا فإن من مظنة المقامات التى يرد فيها هذا الأسلوب مقامات الظرف والبُخل والتخلص من الإحراج ، ففى أسلوب الحكيم متسع للظرفاء والبخلاء وأمثالهما فى التخلص (٢) مما وقعوا فيه إضافة إلى مقامات توجيه السائل والمخاطب إلى ما ينبغى أن يوجه إليه الاهتمام .

---

(١) مفتاح العلوم ٣٢٧ يُصفَد : يُعطى ، يُصفّد : يوثق فى الحديد .

(٢) من أراد التوسعة فى ذلك فليرجع إلى مواقف البخلاء والظرفاء فى مثل : البخلاء للجاحظ ، معرفة كتاب " أخبار " لابن الجوزى ، معجم المصطلحات البلاغية ٢٠٠/١ .

هذا عن البلاغة العامة للأسلوب وتبقى لكل مقام استدعاه بلاغته الخاصة وأسراره التى يكتنفها .

كلمة فى بلاغة أسلوب الحكيم :

وتبقى بعد هذه التطوافة السريعة فى رحاب بلاغة أسلوب الحكيم أن نُذكّر بضابط حاكم فى هذا المقام وهو أن أسلوب الحكيم – شأن غيره من الأساليب – ولو كان حسناً فى ذاته لما له من هذه البلاغة الآسرة فإنه يظل مرهوناً باستدعاء المقام له ، واحتياج الموقف إليه احتياجاً لا يغنى عنه سواه، وكثرت إشارات البلاغيين إلى أن بلاغة الأساليب مرهونة ببراعة استخدامها ومصادفتها لمقامها .

ونخلص من ذلك هنا إلى أنه ليس كل مقام يمكن أن يحمل التركيب فيه على أسلوب الحكيم يحمل عليه إذا كان ذلك سينقص من أبلغية التركيب ، لا سيما إذا كان ذلك يتعلق ببيان النبوة ، فمن النصح لبيانه – ﷺ – أن نستحضر ما عناه ابن مسعود – ﷺ (إذا حدثتم بالحديث عن رسول الله – ﷺ – فظنوا به الذى هو أهيأ والذى هو أهدى والذى هو أتقى)(١) .

---

(١) سنن الدارمى . باب تأويل حديث رسول الله – ﷺ – ١/١٥٤ حديث رقم ٥٩١ – تحقيق فؤاد زمرلى – خالد السبع العلمى ط : دار الكتاب العربى – أولى – ١٩٨٧م.

المبحث الثانى

وقفة مع الطيبى فى أسلوب الحكيم

المطالع لأسلوب الحكيم فى بطون كتب البلاغة يجد أن المعول عليه عندهم فى دخول الكلام تحت أسلوب الحكيم من عدمه هو " عدم ترقب المخاطب أو السائل لما يتلقى " .

واستقرتْ على ذلك كلمة الغالب من البلاغيين .

وعليه فالأسلوب عندهم ينتظم نوعين :

(١) تلقى المخاطب بغير ما يتوقع .

(٢) تلقى السائل ... .

بينما وجدنا الإما الطيبى (١) يوسع دائرة المصطلح فيدخل فيه نوعاً ثالثاً وهو " **الزيادة فى الجواب عما يتطلبه السؤال** " ، وجعل ذلك – وإن كان من قبيل الإطناب – من أسلوب الحكيم ، لكونه يفيد فائدة يقتضيها المقام، وهى زيادة النفع للسائل أو إرشاده إلى أكثر مما سأل . صارفا النظر عن كونه يتوقع ذلك أم لا .

وبنى الإمام الطيبى دخول " الزيادة فى الجواب " باب أسلوب الحكيم – خاصة تلقى السائل بغير ما يترقب – على أن السؤال ضربان : جدلى ، تعليمى .

وحق النوع الأول : أن يطابق الجوابُ السؤال بدون زيادة أو نقص .

---

(١) هو الإمام شرف الدين الحسين بن عبد الله بن محمد الطيبى ت ٧٤٣هـ صاحب " التبيان فى علم المعانى والبديع والبيان " .

وحق النوع الثانى : أن يتحرى المجيبُ الأصوبَ ، كالطبيب الرفيق يتوخى ما فيه شفاء العليل أم لا . (١)

ولعل هذا المعنى هو ما عناه ابن دقيق العيد بقوله (المعتبر فى الجواب ما يحصل منه المقصود كيف كان ولو بتغيير أو زيادة ولا تشترط المطابقة) (٢) .

أمثلة على إدخال الطيبى " الزيادة فى الجواب " باب أسلوب الحكيم :

عن سلمان قال : قرأتُ فى التوراة أن بركة الطعام الوضوء بعده فذكرت ذلك للنبى – ﷺ – فقال رسول الله – ﷺ :–

" بركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده " (٣) .

وهنا يقول الطيبى : (وجوابه ﷺ من الأسلوب الحكيم حيث **قرر ما تلقاه به وزاد عليه**) (٤) .

عن أبى سعيد الخدرى قال : خرج رسول الله – ﷺ – فى أضحى أو فِطْر إلى المصلى فمرّ على النساء ، فقال " يا معشر النساء تَصَدَّقْن ، فإنى أُريتكن أكثر أهل النار فقلن : وبم يا رسول الله ؟ ، قال : تُكْثِرن اللَّعن ،

---

(١) انظر : شرح مشكاة المصابيح ٤٨٧/٢ .

(٢) فتح البارى ٤٧٩/٣ إكمال المعلم (شرح الأُبىّ على مسلم) ٢٩٢/٣ .

(٣) فتح البارى ٤٧٩/٣ إكمال المعلم ٢٩٢/٣ .

(٤) أبو داود ك الأطعمة – غسل اليد قبل الطعام ، الترمذى : الأطعمة عن رسول الله – ما جاء فى الوضوء قبل الطعام وبعده .

وتَكْفُرن العشير ، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب لُبِّ الرجل الحازم من إحداكن " قلن : ما نقصان ديننا وعقلنا ؟ يا رسول الله ! (١)

قال " أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل ؟ قلن : بلى . قال " فذلك من نقصان عقلها . قال : أليس إذا حاضت لم تُصلِّ ولم تَصُمْ ؟ . قلن : بلى . قال : فذلك من نقصان دينها " (٢) . ويعلق عليه الطيبي بقوله :-

(فالجواب من الأسلوب الحكيم ، لأن قوله " ما رأيت من ناقصات عقل ودين إلى آخره زيادة ، فإن قوله " تكثرن اللعن وتكفون العشير " جواب تام) (٣)

عن عمرو بن العاص قال : أتيت النبى - ﷺ - فقُلتُ ابسُطْ يمينك فلأبايعك فبسط يمينه ، فقبضتُ يدى ، فقال : مالك يا عمرو ؟ قلت : أردتُ أن أشترط . فقال : تشترط ماذا ؟ قلت : أن يُغفر لى . قال : أما علمت يا

---

(١) شرح مشكاة المصابيح ٩/٢٨٥٤ ، وإن كان المباركفورى قد نقل عن القارئ قوله (وهذا يحتمل منه ﷺ أن يكون إشارة إلى تحريف ما فى التوراة ، وأن يكون إيماء إلى أن شريعته زادت الوضوء قبله أيضاً استقبالاً للنعمة بالطهارة المشعرة للتعظيم على ما ورد " بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " وبهذا يندفع ما قاله الطيبى من أن الجواب من الأسلوب الحكيم تحفة الأحوذى ٥/٤٧٠ ط: دار الكتب العلمية - بيروت.

(٢) البخارى : الحيض . ترك الحائض من الصوم ، مسلم : الإيمان . بيان نقص الإيمان بنقص الطاعات .

(٣) البخارى : الحيض . ترك الحائض من الصوم ، مسلم : الإيمان . بيانه نقص الإيمان بنقص الطاعات .

عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلهـــا ، وأن الحج يهدم ما كان قبله ؟! (١)

فقد أدخله الطيبى باب الأسلوب الحكيم من كون (حديث الهجرة والحج زيادة فى جوابه ، كأنه قيل : لا تهتم بشأن الإسلام وحده ، وأنه يهدم ما كان قبله ، فإن حكم الهجرة والحج كذلك) (٢) .

وأكتفى بهذا القدر من الشواهد على دخول الاستطراد " الزيـــادة فـــى الجواب " باب أسلوب الحكيم عند الطيبى (٣) .

---

(١) شرح مشكاة المصابيح ٤٦٧/٢ . ورأى أن هذا الحديث – إن دخـــل بـــاب أســـلوب الحكيم – فمن زاوية أخرى هى :- المخالفة فى جوابه ﷺ لسؤالهم ، فقد سألوا عـــن نقصان الدين والعقل فقدم البيان النبوى بيان نقصان العقل على الدين .

ويلاحظ أن البيان النبوى غلب عليه – إن لم يكن التزم – تقديم العقل على الدين فى هذه القضية فلم أقف على راوية قدمت بيان نقصان الدين على بيان نقصان العقل .

ولعل السر فى هذا هو التدرج والتلطف بالسامع ، حيث بُدئ بالاهون والأقل وهـــو (بيان نقصان العقل) ليُهيئ النفوس ويتدرج بها بكسر شوكة استغرابها وإزالة جعلهـــا – كما أبان عنه استفهامهم : وما نقصان ديننا وعقلنا ؟ – ببيان نقصان العقل منـــتقلاً منه إلى بيان نقصان الدين .

بخلاف ما لو عكس فبدأ ببيان نقصان دينهن ، فأراه كالهجوم القاسى على المخاطب دون تمهيد أو تأنيس ، وذلك لأن للدين السلطان الأعظم على العقول والقلوب .

(٢) مسلم – الإيمان – كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج ، أحمـــد – مســـند الشاميين ، صحيح ابن خزيمة ١٣١/٤ ، فيض القدير ١٦٧/٢ ، الترغيب والترهيـــب ١٠٤/٢ .

(٣) ومن أراد التوسعة فى هذا فليرجع إلى : شرح مشكاة المصـــابيح للطيبـــى . ففيهـــا المزيد.

تعليـــق :

بادئ ذى بدء تجدر الإشارة إلى أننى لم أجد – فيما وقفت عليـــه مـــن كتب البلاغة – مَنْ سَبق الطيبى إلى ما ذهب إليه هنا .

وبالتأمل فى نظرة البلاغيين – غير الطيبى – نجدها ترتكز فى الجانب الأكبر منها على مفاجأة المخاطب أو السائل وعدم توقعه ، حتى أسسوا جزءاً كبيراً من بلاغة هذا الأسلوب على تلك المفاجأة وعدم التوقع .

بينما يجد المتأمل فى نظرة الإمام الطيبى لأسلوب الحكيم أنها ترتكـــز فى الجانب الأعظم على سرّ هذه المخالفة لمقتضى الظاهر ، وهْـــى تنبيـــه المتلقى على الأنفع له والأولى بحاله ، والأحرى به أن يصرف همَّهُ إليـــه . بصرف النظر عن كون المتلقى يتوقع هذا أم لا ؟ والزيادة فى الجواب عمـــا يقتضيه السؤال تنهض بتحقيق هذا السرّ ، ومن هنا دخلـــت بـــاب أســـلوب الحكيم.

وأرى أنها نظرة لها وجاهتها واعتبار شريف .

ثم كون الزيادة فى الجواب عما يقتضيه السؤال ألصق بباب الإطنـــاب لا يعكر على ما نحن فيه ، فالنكات البلاغية لا تتزاحم ، ثم تعـــدد النظـــرة لأسلوب بلاغى دليل امتلائه وثرائه – كما هو شائع .

لأن هذا التعدد والتنوع مبعثه تنوع زاوية التفكير والنظر ، ولا يتصور أن تتكشف عطاءات المعنى فى كل زاوية نظر بدرجة واحـــدة . ولا لكـــل متأمل بقدر مساو .

وليس كل أسلوب قادراً على هذا العطـــاء الثـــرّ ، ولا يكتنـــز هـــذه الخصوبة فى المعانى وزوايا التأمل . اللهم إلا إذا كان فى منزلة فريدة بـــين أساليب البلاغة .

المبحث الثالث

من سمات أسلوب الحكيم

فى بيان النبوة

أسلوب الحكيم طريق من طرق تعليم كيفية صياغة السؤال :

عن عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – (أن رجُلا قال : يا رسولَ الله ، ما يَلبَسُ المُحْرِمُ من الثياب ؟ قال رسولُ الله – ﷺ – : لاَ يلبَس القُمُصَ ولا العَمائمَ ولا السَّراويلاتِ ولا البرانس ولا الخِفافَ ، إلا أحدُ لاَ يجد نعلين فلْيلبَس خُفَّين وليقطعهما أسفلَ من الكعبين . ولا تَلبَسوا من الثياب شيئا مَسّه زعفرانُ أو وَرْسُ) (١) .

البخارى / الحج : مالا يلبس المحرم من الثياب . فتح البارى ٤٦٩/٣ حديث ١٥٤٢ .

مسلم / الحج : ما يبح للمحرم بحج أو عمرة وما لا يباح ٨٣٤/٢ .

ابن ماجة / المناسك / ما يلبس المحرم من الثياب ٩٧٧/٢ – الدارمى/المناسك ٤٩/٢ .

يتناول هذا القبس مظهراً من مظاهر بيان الأحكام وتعليم الناس أمر دينهم .

فقد سأل رجل رسول الله – ﷺ – عما يجوز للمُحْرِم لبسه .

---

(١) القُمُص – بضم القاف والميم – جمع : قميص ، والعمائم (جمع عمامة) والسروايلات (جمع سروال) والبرانس = جمع بُرنس وهو كل قلنسوة طويلة ، والخفاف– بكسر الخاء – جمع خُفَ .

الوَرْس : صبغَ أصفر إذا أصاب الشئ لونَه . انظر : لسان العرب ، تهذيب اللغة .

وكان المقتضى أن يأتى جوابه - ﷺ - مطابقاً للسؤال فيجيبه عن ما يلبسه المحرم من الثياب ، لكن الجواب النبوى جاء على خلاف مقتضى الظاهر - حيث سأل الرجل عما يلبس فأجيب بما لا يلبس - ومن هنا دخل الحديث باب أسلوب الحكيم .

وقد انطوى هذا العدول عن مقتضى الظاهر على عدة نكات بلاغية منها :

لفت النظر إلى الأولى والأجدر بالسؤال أن يكون عما لا يلبس لأنه الحكم العارض فى الإحرام المحتاج لبيانه ، إذ الجواز ثابت بالأصل معلوم بالاستصحاب ، فكان الأليق السؤال عما لا يلبس . (١) .

وكأنى بأسلوب الحكيم طريق من طرق تعليم كيفية صياغة السؤال فملابس الإحرام معروفة معلومة ، فكأن الرسول - ﷺ - بجوابه عما لا يلبس المحرم يلفت انتباه السامع - ونحن تبع له - إلى أنه **لا ينبغى السؤال عن المعلوم المتعالم** ، بل يُوجّه إلى المجهول الخفى ولو نوع خفاء ، فالسؤال عنه هو مقتضى الحكمة ومنبع الفوائد ومهبط المعرفة ...

وكذا الشأن فى المسئول حين يجيب عن سؤال ظاهر عليه ألا يضيع وقته ووقت السامعين ويبذل أنوار عقله وعقولهم فى أمور معلومة الجواب عنها معاد مكرور كما كان يقول القائل :

ما أرانا نقول إلا معارا ... أو معاداً من قولنا مكرورا!

فالمسئول الذكى إذا وُجه بسؤال - ولو معلوم - حوّل أذهان الناس إلى المجهول ، ففتح للعلم باباً جديداً وأفقاً أسمى ، وكذلك العقول السخية تفتح

---

(١) فتح البارى ٣/٤٧٠ ، شرح الأبى على مسلم (إكمال المعلم) ٣/٢٠٣ .

للعلم والمتارف أبواباً تلج بهم دروباً مجهولة وأودية ثَرة ، ولا يقف عقل المسئول على قدر عقل السائل إلا أن يكون السائل بليداً أو عييًّا ...

وكذلك أضاف الجواب النبوى هنا بُعداً للمسئول يوليه عنايته عند جوابه ، وهو أن (المعتبر فى الجواب ما يحصل منه المقصود كيف كان ، ولو بتغيير أو زيادة ولا تشترط المطابقة) (١) .

وهذا فى حد ذاته تأكيد على ما قرره البلاغيون من أن البلاغة هى مطابقة مقتضى الحال فليست البلاغة الإيجاز دوماً وليس الإطناب معيبا أبداً.

ثم ينطوى جوابه - ﷺ - على نكته بلاغية أخرى وهى الإيجاز والاختصار (لأن ما لا يلبس منحصر فحصل التصريح به ، وأما الملبوس الجائز فغير منحصر وإنما عدل عن الجواب لأنه أخصر وأحصر) (٢) وعليه (فهو من الإيجاز البليغ) (٣) .

ثم إن جوابه - ﷺ - فوق ما اشتمل عليه من لطائف قد أظهر عناية التراكيب لا بالمنطوق من العبارة بل بالمفهوم منها - الالتزام والمخالفة - فقد أحال الجواب إليها وعول عليها .

---

(١) شرح الأبى على مسلم ٢٩٢/٣ .

(٢) فتح البارى وشرح الزرقانى ٣٠٦/٢ .

(٣) الرسائل البلاغية لابن كمال باشا - القسم الثانى - مخطوط ماجستير - لطفى قنديل السيد ص ٧٧ كلية اللغة العربية بالقاهرة .

فحين سُئِل – ﷺ – عما يلبس المحرم فأجاب بما لا يلبس دل بطريق المخالفة (١) والالتزام على الملبوس للمُحرِم ، (وبه تُعرف أن أدلة الالتزام قد تكون أرجح من المطابقة) (٢) ، وفى صرف السامع إلى المفهوم من العبارة استثارة ذهنية ورياضة عقلية لها مالها من البلاغة وحسن التأثير .

ولله در النووى حين ذهب إلى أن جوابه – ﷺ – (من بديع الكلام وجزله) (٣) .

ويبرز أهمية المعدول إليه – المهنى عنه من الملبوس هنا – من ترتب الكفارة ووجوب الفدية عليه .

هذا وقد اعترض بعضهم على كون الجواب النبوى هنا من باب " أسلوب الحكيم " بحجة (أنه كان يمكن الجواب بما يحصر أنواع مالا يلبس كأن يقال : ما ليس بمخيط ولا على قدر البدن كالقميص أو بعضه كالسراويل أو الخُفّ ولا يستر الرأس أصلاً ولعل المراد من الجواب المذكور : ذكر المُهمّ وهو ما يحرم لبسه ويوجب الفدية) (٤) .

وأرى أنه اعتراض غير ذى شأن لأن ذكر المُهمّ – كما ذهبوا – هو عين أسلوب الحكيم فلم يبق لاعتراضهم مجال .

---

(١) أولاها علماؤنا الكرام عناية جليلة ويرجع فى ذلك إلى : الإحكام إلى أدلة الأحكام للآمدى ، الإحكام لابن حزم ، المستصفى للإمام الغزالى " المجلد الأول / أصول الفقه لأبى زهرة .

(٢) إكمال إكمال المعلم للإمام الأبىّ ٢٩٢/٣ .

(٣) النووى على ملسم ٧٣/٨ .

(٤) فتح البارى ٤٠٢/٣ ، شرح الزرقانى ٣٠٧/٢ .

ويرى أهل العلم أن حكمة تحريم الأصناف المذكورة على المُحرم هى (أن يَبْعد عن الترفه ويتصف بصفة الخاشع الذليل وليتذكر أنه محرم فى كل وقت فيكون أقرب إلى كثرة أذكاره وأبلغ فى مراقبتـــه وصـــيانته لعبادتـــه وامتناعه من ارتكاب المحظورات وليتذكر به الموت ولباس الأكفان ويتذكر البعث يوم القيامة والناس حفاة عراة مهطعين إلى الداعى والحكمة فى تحريم الطيب أن يبعد عن الترفه وزينة الدنيا وملاذهـــا ويجتمـــع همـــه لمقاصـــد الآخرة)(١) .

(١) فتح البارى ٨/٧٤ .

أسلوب الحكيم والترفق بالمخاطب

ومن ذلك ماروى (عن علىّ أنَّ فاطمةَ عليها السلامُ شَكَتْ ما تَلقى فى يدِها من الرَّحى فأتت النبىَّ - ﷺ - تسأله خادماً ، فلم تجِده ، فذكرتْ ذلك لعائشة ، فلما جاء أخبَرتْه ، قال : فجاءنا وقد أخذْنا مَضاجِعَنا ، فذهبْتُ أقومُ، فقال : مَكانَكِ ، فجلسَ بيننا حتى وجدتُ بردَ قَدميه على صدرى ، فقال : ألا أدُلكما على ما هو خيُر لكما من خادِم ؟ إذا أويتما إلى فراشكما - أو أخذتما مَضاجِعَكما - فكبِّرا أربعا وثلاثين وسبِّحا ثلاثاً وثلاثين واحمدا ثلاثا وثلاثين. فهذا خير لكما من خادم .)

البخارى : الدعوات - التكبير والتسبيح عند المنام - فتح البارى ١٢٣/١١ حديث ٦٣١٨ .

مسلم : الذكر والدعاء - باب التسبيح أول النهار وعند النوم - حديث ٢٧٢٧ .

فسياق الحديث كاشف عن إتيان السيدة فاطمة الزهراء - رضى الله عنها وعن آل البيت أجمعين - أباها النبى - ﷺ - تسأله خادماً (١) تعينها على شئونها ، فقد أثّرتْ الرحى فى يدها - الشريفة - من الطحن وأثرت القربة فى عنقها من الاستقاء ، وقمّت البيت حتى اغبرت ثيابها وخبزت حتى تغير وجهها (٢) . وقد علمتْ رضى الله عنها (أن رسول الله - ﷺ - أتى بسبىْ) (٣) .

---

(١) لفظ يطلق على المذكر والمؤنث من الخدم .

(٢) ينظر : فتح البارى ١٢٣/١١ .

(٣) فتح البارى ٢٤٦/٦ حديث (٣١١٣) .

وهنا تتعدد الروايات ، فقد صرحتْ رواية الهيثمى أنها سألته خادماً فأجابها ﷺ بقوله (والله لا أعطيكم وأدعُ أهْل الصفّة تطوى بطونهم من الجوع لا أجد ما أنفق عليهم ولكن أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم) (١) .

وخرج جوابه - ﷺ - هنا مخرج أسلوب الحكيم من حيث تلقى المخاطب بغير ما يتوقع ، إذ هى ابنته وفلذة كبده وأمّ أبيها - كما كان يحلو له - ﷺ - أن يناديها - هى الزهراء رضى الله عنها بُضعة منه - ﷺ - ثم هى جاءت تشتكى أثر الرحى والقربة وتلتمس خادماً مما أفاء الله عليه من السبى . فالظاهر كله يقرر أنها مجابة الطلب معطية ما سألت .

لكنه - ﷺ - يفاجئها بما لا تتوقع ، وأنه ﷺ ما كان معطيها خادماً ويترك أهل الصفة يطوون بطونهم جوعاً لعدم وجود ما ينفقه عليهم ، ولك أن تستحضر حال الزهراء وهى راجعة من عند أبيها من حيث أتت .

ثم تأتى رواية الباب لتوضح إتيان النبى - ﷺ - بيت فاطمة وعلىّ (... فجاءنا وقد أخذنا مضاجعنا ، فذهبت أقوم فقال : مكانك حتى جلس بيننا...) ولم يكتف - ﷺ بجلوسه بينهما وإيجادهما برد قديمه ﷺ الشريفتين.

وفى ذلك ما فيه من الأُنس ورفع الحرج ما فيه - بل زاد ﷺ فى تأنسيهما به ، وذلك بدخوله معهما فى الفراش (٢) . وانظر إلى هذا الجوّ الذى يضم بين لفائفه الحنوّ والترفق النبوى ، ويكشف كذلك عن علو الأدب فى الهيئة فى حضرة النبى - ﷺ - إضافة إلى كريم الحياء منه ﷺ .

على نحو ما بينته رواية على بن أعبد من سؤال النبى ﷺ فاطمة :-

---

(١) مجمع الزوائد ١٠/١٠٠ ، مسند الحميدى ١/٢٥ حديث ٤٤ .

(٢) انظر : فتح البارى ١١/١٢٥ .

(ما كان حاجتك أمس ؟ فسكتت مرتين ، فقلت – يعنى عليا بن أبـــى طالب – أنا والله أحدثك يا رسول الله فذكرتُه له) (١) وسواء حملنا استفهامه ﷺ هنا على التقرير (٢) أو على الاستفهام الحقيقى (٣) فالمقام يكتنفه الحياء ، وذلك بعدم تصريحها وجرأتها – رضى الله عنها – على الطلـــب منـــه ﷺ ابتداء .

وهذا ملمح من ملامح التربية الرائدة والذوق الرفيع . حرىٌ بالأبنـــاء والأزواج أن ينتهجوه سلوكاً مع آبائهم وأزواجهم .

ولا شك أن إتيانه – ﷺ بيت فاطمة وعلىّ مجدد للأمل ومقوى لليقـــين فى تنفيذ رغبتها ، وتحقيق رجائها بتوفير خادم لها ، وهذا من شأنه أن يثير تعلق النفس بهذا الرجاء .

ثم ها هو ﷺ يفاجئهما بغير ما يترقبون ، وذلك بصرفهما إلى ما هـــو خير مما سألاه ، وهو الذكر والتسبيح والتحميد ، وهذا يعكـــس قيمـــة مـــا صرفهم إليه ﷺ ، وإلاّ ما صرفهم عما تعلقت به نفوسهم أشد التعلق إليـــه ، فقد آثر لهما أمر الآخرة على أمر الدنيا ، والآخرة خير وأبقى ، فإنه ﷺ لما (منعهما الخادم وقصرهما على الذكر عُلم أنه إنما اختار لهما الأفضل عنـــد الله)(٤) .

---

(١) فتح البارى ١١/١٢٥ .

(٢) فى ضوء رواية الهيثمى الحميدى السابقتين .

(٣) بكونها جاءته فلم تجده كما فى رواية الباب ، أو بكونها جاءته كما فى رواية السائب (فقال : ما جاء بك يا بنية ؟ قالت : جئت لأســـلم عليـــك ، واســـتحييتْ أن تســـأله ورجعت) .

(٤) فتح البارى ١١/ ١٢٨ .

فخرج كلامه – ﷺ – مخرج أسلوب الحكيم إشعاراً (بأن الأهم من المطلوب هو التزود للمعاد والصبر على مشاق الدنيا والتجافى عن دار الغرور) (١) .

ومع خروج جوابه ﷺ على خلاف مقتضى الظاهر ومخالفته لترقب المخاطب ، فإننا نجد الجوّ العام للحديث – على اختلاف رواياته – لم يفقد الشفقة والتعطف والترفق من المتكلم بالمخاطب وهذا روح أسلوب الحكيم .

ناهيك عن مناسبة أسلوب الحكيم وما يشيعه من ظلال الإرشاد اللطيف والتوجيه المهذّب والمخالفة الراقية دون مسّ المخاطب بحرج – وهذا فى غاية المناسبة لحياء السيدة فاطمة – رضى الله عنها – والذى تعدد صوره فى هذا الحديث .

وزيادة على ذلك فإن فى أسلوب الحكيم هنا مظهر من مظاهر الترقى بالأهل وتقوية عزائمهم حين تكون لهم القدرة على ذلك . وقد دل نزولهما على ما دلهما عليه – ﷺ – ورضاهما به على سمو تربية آل بيت النبى ويستحقون – إن شاء الله – بهذا الصبر على لأواء الحياة وشظف العيش وقلة الشئ وشدة الحال المقام الأوفى والدرجات العُلَى عند الله .

بيان أهمية ما دله عليه :

ذهب الشراح فى بيان خيرية ما صرفهما إليه رسول الله – ﷺ – أكثر من مذهب وضحها ابن حجر فى قوله (أن الذى يلازم ذكر الله يعطى قوة أعظم من القوة التى يعملها له الخادم أو تسهل الأمور عليه بحيث يكون تعاطيه أموره أسهل من تعاطى الخادم لها هكذا استنبطه بعضهم من الحديث،

---

(١) السابق .

والذى يظهر – والكلام لا يزال لابن حجر – أن المراد : أن نفع التسبيح مختص بالدار الآخرة ، ونفع الخادم مختص بالدار الدنيا والآخرة خير وأبقى) (١) .

وأرى من المقبول أن نجعل ردّه ﷺ عليهما كما عند أحمد – (والله لا أعطيكما شيئاً وأدع أهل الصفة) فى مقابلة صريح طلبها – رضى الله عنها – الخادم منه .

وأن نجعل مجيئه ﷺ لبيتهما . ثم دخوله معهما الفراش وعدم إزعاجهما عن مكانهما وإبقائهما على حالهما زيادة فى التعطف ...

ثم قوله ﷺ (ألا أدلكما على ما هو خير لكما من خادم ؟) فى مواجهة استحيائها الشديد أن تطلب إلاّ بعد أن علمت أن أباها قد أتى بسبى ، ثم مجيئها أباها واستحياؤها أن تصرح بما جاءت له وعودتها إلى بيتها ، ثم استحياؤها مرتين حين أتاها النبى ﷺ البيت فصارحه على بطلب فاطمة فتجرأت هى وأكملت .

وإذا استقام لى هذا فالحديث أنموذج يوضح كيف تراعى لغةُ المتكلم لغةَ وحالَ المخاطب ، فيبادله رفقاً برفق وحياء بحياء وصعوداً بصعود وأحياناً مصارحة بمصارحة .

وأراه بابا كلما وسع اتسع ، خاصة حين تجمع روايات الحديث المتعددة ويحسن توظيف كل رواية خدمة للمقام الذى ينتظم هذه الروايات جميعاً .

---

(١) فتح البارى ٩/٤١٦ .

كما أرى الحديث هنا يمثل معلما من معالم أسلوب الحكيم وأعنى به أن مخالفة المتكلم لمخاطبه أو سائله وتلقيه له بغير ما يترقب ليست على وتيرة واحدة .

فقد نلمس – مع هذه المخالفة – المبالغة فى الترفق والحنوّ والتوجيه الكريم حتى كأننا لا نكاد نحس بالمخالفة أو المفاجأة . وهذا شأن الحديث هنا بعكس أحاديث أخرى من أسلوب الحكيم ترتفع فيها نبرة الأسلوب وتبرز فيها سمة المخالفة وكأنها تلقى المخاطب كفاحا . كما فى حديث (لقد كان الرجل فيمن كان قبلكم ... ولكنكم قوم تستعجلون) (١) (ويحك إن الهجرة شأنها شديد ...) (٢) وما بين هذا الهمس الرقيق والارتفاعَ الواضح نجد درجات لهذه المخالفة تتلون بلون مقامها والدافع عليها .

---

(١) من الشواهد المحللة فى هذه الدراسة . ينظر ص ٦٦ .

(٢) من الشواهد المحللة فى هذه الدراسة . ينظر ص ٤٢ .

مخالفة المتكلم لمخاطبه فى أسلوب الحكيم درجات

المطالع لأسلوب الحكيم فى بيان النبوة يجد أن درجة المخالفة بين المتكلم ومخاطبة متفاوتة فقد نجدها كالهمس الخفيف لا نكاد نحس به ، مثل قول سيدنا رسول الله ﷺ للسيدة فاطمة وزوجها الإمام على رضى الله عنهما " إذا أويتما إلى فراشكما فسبحا الله ... " وقد نجدها مرتفعة بارزة ، وما بين هذا الارتفاع وذلك الهمس نجد درجات لهذه المخالفة تتلون بلون مقامها والدافع عليها ، ومن الشواهد على ارتفاع نبرة المخالفة بين المتكلم ومخاطبه ماروى عن أنسٍ أن رجلا من أهل البادية أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله متى الساعةُ قائمة ؟ قال : ويلكَ وما أعددْتَ لها ؟ قال : ما أعددْتُ لها إلاَّ إنى أُحبُّ اللهَ ورسولَه . قال : أنتَ مع من أحببتَ . فقلنا : ونحنُ كذلك ؟ قال: نعم . ففَرحنا يومئذ فَرَحا شديداً . فمَّر غُلامُ للمغيرة – وكان من أقرانى– فقال : إنْ أُخِّر هذا فلن يُدركه الهَرم حتى تقومَ الساعة) .

البخارى : الأدب – ما جاء فى قول الرجل : ويلك ، باب (علامة الحب فى الله)

سياق الحديث دائر فى رحاب السؤال عن أحد الأمور التى اختص الله تعالى نفسه العلية بعلمها ألا وهو " علم قيام الساعة " وذلك لقوله تعالى (يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت فى السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفى عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (١) .

فيسأل رجل من البادية رسول الله ﷺ " متى الساعة ؟ " أى : متى قيام الساعة ؟ وكان مقتضى الظاهر أن يجيبه النبى ﷺ عن سؤاله ببيانه وقتها ،

---

(١) الأعراف : ١٨٧ .

لكنه عدل - ﷺ عن هذا المقتضى للظاهر بقوله الشريف : ويلك وما أعددت لها " (ويحك وما أعددت لها ؟) (١) .

ويقينا فإن قوله ﷺ " ويلك " أو " ويحك " غير مقصود به ظاهره (٢) ، لاستحالة صدور مثل هذا اللفظ المهول من صاحب الخلق العظيم الـــر .ف الرحيم بأمته ، لكن أقصى ما يُحمل عليه هذا اللفظ ومثله هو : أن يراد بـــه التعجب (٣) أو على أن (العباد كُلموا بكلامهم ، وجاء القرآن على لغتهم (٤) على مقدار فهمهم ، ... فأجرى هذا على كلام العرب وبه نزل القرآن)(٥) .

ومن أنفس ما حفظ عن أسلافنا فى توجيه مثل هذه الألفاظ مـــا نقلـــه القرطبى عن أبى عبيد (والصحيح أن هذا اللفظ وشبهه يجرى على ألســـنة العرب من غير قصد الدعاء به ، وقد أحسن البديع فى بعض رسائله وأوضح هذا المعنى فقال :- وقد يُوحش اللفظ وكله وُدّ ، ويُكرَه الشئ وما من فعلـــه بُدّ، هذه العرب تقول " لا أبالك " للشئ إذا أهمّ ، و" قاتله الله " ولا يريدون به الذمّ ، و" ويل أمه " للأمر إذا تمّ ، وللألباب فى هذا الباب أن تنظـــر للقـــول

---

(١) صحيح ابن خزيمة ١٤٩/٣ حديث ١٧٩٦ .

(٢) ويل " مثل " ويح " كلمة عذاب ، ومن الحزن والهلاك والمشقة من العذاب ، وقيـــل الويل : اسم واد فى جهنم لو ارسلت فيه الجبال لماعت من حـــره . انظـــر : لســـان العرب ، الصحاح ، النهاية فى غريب الحديث.

(٣) أطلق عليه هذا الوصف سيبويه . انظر لسان العرب : ويل .

(٤) السابق .

(٥) مثل قوله تعالى : " **ويل يومئذ للمكذبين** " المرسلات وقولـــه " **ويـــل للمطففـــين** " . المطففين[١] .

وقائله ، فإن كان وليا فهو الولاء وإن خشن ، وإن كان عدوا فهو البلاء وإن حسن) (١) .

وهو يمثل تعويلا وإحالة صريحة على ضرورة تبصر فقه الحال ومقتضياته كما يعدّ بصيرة ثاقبة فى إنزال المقال على المقام الذى هو به ألزم وأليق .

وعلى أى حال فجوابه ﷺ يشى بمدى الضيق والأسى من انصراف اهتمام السائل إلى غير الأهم وغير الأحرى أن يلزم نفسه به ، زيادة على كون السائل ضاق به فقهه أن يمتثل رأى الصحابة له – ثلاثا – بالسكوت على نحو ما بينته رواية (... فأشار إليه الناس أن اسكت ، فسأله ثلاث مرات ، كل ذلك يشيرون إليه أن اسكت ، فقال – صلى الله عليه وسلم – فى الثالثة : ويحك)(٢).

ناهيك عن فظاظة الرجل وغلطته ، ووضح ذلك فى جهورية صوته عند سؤاله وعدم التزامه خفة الصوت بحضرة سيدنا رسول الله (... ولما ناداه ذلك الأعرابى بصوت جهورى ...) (٣) .

ثم إن جوابه عن سؤال الإعرابى بسؤال (وما أعددت لها ؟) بدلاً من أن يجيبه عن ميقاتها – كما يتقضى ظاهر الحال – أخرج الكلام مخرج أسلوب الحكيم .

---

(١) خلاف الظاهر فى الدعاء على المخاطب دراسة بلاغية فى السنة النبوية – إبراهيم الهدهد ص ٢٦ .

(٢) صحيح ابن خزيمة ١٤٩/٣ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤٣٤/٤ عند تفسير الآية (٢٥) من الجن .

فالسؤال هو : متى الساعة قائمة ؟

والجواب على مقتضى الظاهر هو : علمها عند ربى .

ولو جاء البيان النبوى على هذا النمط لكان مطابقاً لمقتضى الظاهر ، ولكان كافيا شافيا ، لأن الجواب معلوم من الدين بالضرورة ، ولو وجه هذا السؤال لغير رسول الله ﷺ لكان الجواب كما سبق ، ولكن الرسول ﷺ ينأى عن الجواب المألوف المعروف ويطرق باب جديداً وفكراً جديداً ، وهكذا دأبه ﷺ لا يستطيع أحد أن يرصد كلمته قبل أن يقولها : ما هى ؟ فكل ما يقع فى الأذهان ، ففكره ﷺ منه أعلى وأسمى ، فإذا نطق نطق عن ميراث حكمة كما كان يقول الجاحظ – رحمه الله .

وتبرز بلاغة أسلوب الحكيم من توجيه عناية السائل إلى أهم مما سأل، فكأنه يقوله (كان الأولى لك أن تصرف عنايتك إلى الاستكثار من الحسنات إعداداً ليوم القيامة) (١) فالواجب أن يَصرف المرء جُلّ همه إلى الاستعداد لهذا اليوم ويضرب صفحاً عن وقته الذى استأثر الله بعلمه ولذا فقد (كان ﷺ يسأل عن وقت الساعة فلا يُجيب عنها) (٢) .

ولعل قوله ﷺ " وما أعددت ؟ " ناظر إلى قوله تعالى (فيم أنت من ذكراها) (٣) الذى وقع – كما يذكر الطاهر بن عاشور – (موقع الجواب عن سؤالهم عنها ، من إرادة تعيين وقتها وصرف النظر عن إرادتهم به الاستهزاء ، فهذا الجواب من تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، وهو من تلقى السائل بغير ما يتطلب تنبيهاً له على الأَولى به أن يهتم بغير

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/ ٩٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤/٤٣٤ .

(٣) النازعات ٤٥ .

ذلك ، وهو مضمون قوله :" **إنما أنت منذر من يخشاها** " (١) وهذا ما يسمى بالأسلوب الحكيم)(٢) .

فالأعرابى فى الحديث شغل نفسه بغير المهم (لأنه سأل عن الوقت فقيل له : مالك ومالها إنما يهمك التزود لها والعمل بما ينفعك فيها) (٣) .

هذا وقد تكاثرت روايات هذا الحديث بألفاظ متقاربة لا تخلو من مفارقات بيانية تخدم ما جاء فى الرواية الأم هنا ، ثم هى ذات أثر بالغ فى فقه المعنى واستنباطه ، والرواية الأخرى للحديث (إنما هى صورة من صور الاستبدال ذى الأثر البالغ فى تحوير الدلالة وتشكيلها على نحو ، فالأشياء فى البناء اللغوى عناصر تتفاعل لا أجزاء تتجاوز ، وإدراكنا لثمارها إنما يتم من خلال إدراكنا للعلائق الجوانية فيما بين هذه العناصر)(٤).

فوجب على الباحث فى بيان النبوة حشد ما يستطيعه من روايات الباب الذى يخدمه ، باذلاً الجهد كله فى استبطان الدقائق واللطائف فيما بينها ، وهذا لعمرى مظهر من مظاهر النصح لبيانه ﷺ على حد قول شيخنا د/محمود توفيق (ومن النصح لبيانه – ﷺ – الوعى بوجوه المفارقات البيانية بين الروايات للحديث الواحد) (٥) .

---

(١) النازعات ٤٥ .

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/ ٩٥ .

(٣) الفتوحات الربانية ١/٢٦٠ .

(٤) فقه النبوة د/ محمود توفيق سعد ١٢ .

(٥) السابق ٢٧.

ومن هذه الروايات ما يفيد أن الرسول ﷺ قد أرجأ جوابه عن سؤال فترة من الوقت حتى قال (بعض القوم : سمع ما قال وكره ما قال) (١) .

ويمكن توجيه ذلك بأن الرجل سأل الرسول ﷺ وهو يخطب (٢) فأرجأ ﷺ ردّه عليه حتى الفراغ من الخطبة .

ووردت رواية أخرى بأن السؤال كان بين يدى صلاة لا بين خطبته ﷺ (... فقال : يا رسول الله : متى قيام الساعة ؟ فقام ﷺ إلى الصلاة ، فلما قضى الصلاة قال : أين السائل) (٣).

وأيما كان الأمر فإرجاؤه ﷺ جوابه عن السؤال يلتقى والثمرة المرتقبة من أسلوب الحكيم – أعنى التوجيه وإرشاد الفرد إلى الأهم والأولى .

فتأخير الجواب هنا أراه طريقا يعلم المرء : متى يسأل ؟ اختيار الوقت الملائم – وهو بذلك يتكامل مع أسلوب الحكيم الذى يعلم الإنسان (عما ذا يسأل ؟) فانظر كيف تتكاتف أجزاء الكلام إلى هذا الحد على تحقيق هدف عام فى المخاطب ؟! .

ثم إن تأخيره ﷺ الردّ – وهو بين يدىّ الصلاة – تطبيق عملى وتجسيد حى لقول السيدة عائشة (... حتى إذا حضرت الصلاة كأننا لا نعرفه ولا

---

(١) صحيح ابن حيان ٣٠٧/١ .

(٢) صحيح ابن خزيمة ١٤٩/٣ باب ٦٠ .

وقد أفاد أهل العلم من ذلك إباحة المسئول عن العلم عن إجابة المسائل على الفور ، وأنه يباح للعالم إذا سئل عن الشئ أن يغضى عن الإجابة مدة ثم يجيب ابتداء منه .

صحيح ابن حبان ٣٠٨/١ .

(٣) السابق .

يعرفنا) وتعليم بالقدوة منه ﷺ لأمته بأنه لا مجال للانشغال بغير الصلاة إذا حضرت مهما كانت الأحوال والملابسات .

وعلى أى حال فلا يُجهل ما أفاده تأخير الإجابة عن السؤال هنا من الإثارة والتشويق ، فالشأن والحال – فى فترة السكوت هذه – أن يراجع السائل نفسه فى ضوء سؤاله بنحو : لماذا سكت رسول الله ﷺ ؟ أما كان ينبغى أن أسأل عن مثل هذا ؟ ...

وأجْمِل بمثل هذه المراجعة الداخلية للنفس مع كل موقف ، والتى أثارها هنا تأخير الجواب . والتشويق فى مثل هذا المقام مبعثه هو تطلع النفس وتشوفها إلى معرفة الجواب . فإذا ما جاءها الجواب – بعد فترة سكوت ليست بالقصيرة – صادف نفساً ولعة به متطلعة إليه فاستقر أيما استقرار – على شاكلة البيان بعد الإبهام .

هذا إذا جاء الجواب على مقتضى الظاهر ، فكيف الحال به حين يأتى على خلاف المقتضى كما هنا ؟! لا ريب أنه يصادف نفساً متطلعة إليه فيأتيها صارفاً عنايتها وآخذاً بناصيتها إلى الأهم .

وعليه فقد أفيد من هذا (أنه عليه السلام إذا سئل عن هذا الذى لا يحتاجون إلى علمه أرشدهم إلى ما هو الأهم فى حقهم وهو – هنا – الاستعداد لوقوع ذلك والتهيؤ له قبل نزوله وإن لم يعرفوا تعين وقته (١) .

ولا يتعارض قوله ﷺ " إن أُخِّر هذا لن يدركه الهرم حتى تقوم الساعة " مع قول الله تعالى (قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو) (٢)

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٧٣ عند تفسير الآية ١٨٧ من الأعراف .

(٢) الأعراف ١٨٧ .

ولا مع ما ورد من أنه " ﷺ كان يسأل عن وقت الساعة فلا يجيب عنها"(١). ذلك أن قوله ﷺ " إن أخر هذا ... (عمل شائع للعرب يستعمل للمبالغة عند تفخيم الأمر وعند تحقيره وعند تقريب الشيئ وعند تبعيده ، فيكون حاصل المعنى أن الساعة تقوم قريباً جداً) (٢) .

وأما كونه أجاب هنا – على غير عادته – فلأن السائل من الأعراب (فخشى أن يقول لهم : لا أدرى متى الساعة فيرتابوا ، فكلمهم بالمعاريض)(٣) وذلك لأن الأعراب لهم حالة خاصة معه ﷺ كانوا (إذا قدموا على النبى ﷺ سألوه عن الساعة : متى الساعة ؟) (٤) وهذا باب واسع فى مراعاة حال المخاطب ضربه لنا بجلاء بيان النبوة ، وله شواهده الكثر فى هذا البيان التى لا تخفى على صاحب الذوق السليم لدلالات التراكيب .

والذى يسترعى الانتباه هنا : كيف صيَّر البيانُ السؤالَ الصغيرَ مدينة للعلم؟! .

وهذا معلم من معالم البيان النبوى – فانظر ماذا فرّع ﷺ عن هذا السؤال : متى الساعة ؟ فرع علماً كثيراً جداً : فرع أنه لا يُسأل عن زمانها، وإنما يسأل عما قدم المرء لها ، وفرع إن المرء مع من أحب ، وفرع أنها قريبة دانية كأن الإنسان إذا أخر فلن يدركه الهرم حتى تقوم الساعة ، وهذا التفريع الأخير كأنه إجابة عن سؤال السائل : متى الساعة ؟ فهو يحدد أنها

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/٤٣٤ .
(٢) فتح البارى ١٠/٥٧٢ .
(٣) السابق .
(٤) مسلم ٤/٢٢٦٩ – باب قرب الساعة حديث ٢٩٥٢ .

قريبة جداً ، ولكن الرسول ﷺ قدم بين يدى هذا التفريع الأخير الـــذى هـــو الأقرب إلى إجابة سؤال السائل – قدم بين يديه بقوله " وما أعددت لها ؟ وما تفرع عنه .. فالحديث فى جملته سؤال : متى الساعة ؟ وجوابه : إذا أخـــر هذا فلن يدركه الهرم . ولكنه ﷺ وسّط بين السؤال والجواب سؤالاً وجوابـــاً آخرين ، هما إنسانُ عين البيان النبوى ولبّ لبابه .

التدرج فى مخالفة المتكلم لمخاطبه

من سمات أسلوب الحكيم أننا قد نجد المتكلم يتدرج فى مخالفة مخاطبه فإذا ما لمس من مخاطبه رغبة فى الاستزادة من توجيه الـــذهن للأهـــم زاده المتكلم .

ومن ذلك ما روى " **عن أنس قال : جاءَ رجلُ إلى النبّى ﷺ فقال : يا رسول الله أنى أُريد سَفَراً فزَوِّدنى ، قال : زَوَّدك اللهُ التَقْوى ، قال : زدْنى ، قال : وغَفَر ذَنْبكَ ، قال : زِدْنى . بأبى أنت وأُمىّ ، قال : ويَسَّر لك الخَيْـــر حيثُ كُنْتَ** " .

الترمذى : الدعوات . ما يقول إذا ودَّع إنساناً

فمقام الحديث كاشف عن تلك العلاقة الودود والارتباط المحمدي مـــن الصحابة بسيدنا رسول الله ﷺ ، فما كانوا يقطعون بـــرأى أو أمـــر – جـــل أوقلّ– دون الاستئناس بمشورته ﷺ .

وهنا يعقد صحابى عزمه على السفر وفى رواية (إنـــى أريـــد هـــذه الناحية للحج) (١) فيطلب الزاد من سيدنا رسول الله ﷺ بقوله (إنى أريـــد سفرا فزودنى) ومقتضى الظاهر أن يُجيبه ﷺ بما طلب .

غير أنه ﷺ يصرف مراد الصحابى عن ظاهره ويوجه عنايتـــه إلـــى الأهم مما سأله . وهو ما كشف عنه جوابه ﷺ الرجل : " زوّدك الله التقوى " ولا ريب أن التقوى خير الزاد ، لا سيما فى مقامات السفر (٢) ففيها المـــرء

---

(١) المعجم الأوسط للطبرانى ١٦/٥ .

(٢) ولعل دلالات المادة " س–ف–ر " تنبئ عن الكشف والتعرية ، ومنه قولـــه تعـــالى " والصبح إذا أسفر " المدثر ٣٤ ، ومنه سفور المرأة عن وجههـــا أى : كشـــفها ، =

أحوج إلى أن يُرزق تقوى الله ويكون فى حفظه وركنه الذى لا يضام . وقول سيدنا رسول الله ﷺ هنا شبيه النظر بقول الله تعالى :-

" وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى" (١) ومن عجيب التشابه كذلك أن الآية واردة فى سياق آيات الحج وبيان خير الزاد للحجيج ، ولا عجب فبيان النبوة خارج من مشكاة بيان التنزيل فهو وحى من وحى .

وقد خرج قوله ﷺ هنا مخرج أسلوب الحكيم – هذا إذا حملنا طلب الرجل على الزاد المادى المعروف (٢) – وهو الراجح فيما أرى – (٣) .

=وسفر الريح الغيم أى فرقته وكشفته ، وسمى السفر سفرا لأنه يكشف عن وجوه المسافرين وأخلاقهم ، لسان العرب (السفر) .

(١) البقرة : ١٩٧ .

(٢) وهو طعام السفر والحضر جميعا . انظر : لسان العرب ، النهاية فى غريب الحديث " زود " .

(٣)يقويه ويرشحه ما أورده أهل العلم من ملابسة نزول قوله تعالى " وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى " فقد ذكروا أنها نزلت فى (طائفة من العرب كانت تجئ إلى الحج بلا زاد ويقول بعضهم : كيف نحج بيت الله ولا يطعمنا ، فكانوا يبقون عالة على الناس فنهوا عن ذلك وأمروا بالزاد وقال عبد الله بن الزبير : كان الناس يتكل بعضهم على بعض بالزاد فأمروا بالزاد وكان للنبى ﷺ فى مسيره راحلة عليها زاد ... قلت – والكلام للقرطبى – فإن المراد الزاد المتخذ فى سفر الحج المأكول حقيقة وعليه أكثر المفسرين .

وقيل : يحتمل أن يكون المعنى : فإن خير الزاد ما اتقى به المسافر من الهلكة أو الحاجة إلى السؤال والتكفف) . تفسير القرطبى ٤١١/٢ ، الطبرى ٢٧٨/٢ ، ابن كثير ٢٣٩/١-٢٤٠ عند تفسير قوله تعالى " وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى " البقرة ١٩٧ . وعليه فطلب الصحابى – فى الحديث – الزاد المادى هو انصياع لتكليف الشرع .

حيث أجاب الرجل إلى غير ما قصد تنبيها واسترعاء لانتباهه إلى فائدة المجاب إليه فيستزيده الصحابى فيزيده الرسول ﷺ " وغفر ذنبك " وتأتى قيمة الجملة الثانية من احتمال كون الصحابى يزعم (أنه يتقى الله وفى الحقيقة لا يكون تقوى تترتب عليها المغفرة ، فأشار بقوله " وغفر ذنبك " أن يكون ذلك الاتقاء بحيث يترتب عليه المغفرة ثم ترقى منه إلى قوله " ويسر لك الخير " (١) .

هذا ومما يلفت الذهن فى الحديث هنا أن تكرر بعينه ، وتكررت – كذلك – المخالفة لهذا الطلب .

بينما نجد أن الطلب أو السؤال مكرر بذاته والإجابة عنه كذلك مكررة بعينها وذلك مثل حديث (ما من عبد قال : لا إله إلاّ الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : نعم . قلت : وإن زنى وإن سرق على رغم أنف أبى ذر) (٢) فالجواب الثانى والثالث هو عين الجواب الأول فهذه صورة أخرى من صور تكرار السؤال داخل هذا الأسلوب .

---

(١) عارضة الأحوذى ٩/٢٨٥ .

(٢) لا يوجد توثيق

تكرار الطلب مع تكرار مخالفة الجواب

من مظاهر أسلوب الحكيم فى بيان النبوة الشريف . تكرار طلب بعينه مع تكرار الجواب عليه بالمخالفة . ومن ذلك ما روى عن عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال : " اللهُم ارحَمْ المُحلِّقين . قالو : والمُقصِّرين يا رسول الله . قال : اللَّهم ارحمِ المُحلِّقين . قالوا : والمُقَصِّرين يا رسول الله . قال : والمُقَصِّرين " .

البخارى : الحلق – الحلق والتقصير عند الإحـــلال – فـتح البـــارى ٦٥٦/٣ حديث ١٧٢٧ .

فالرسول – ﷺ – يدعو للمحلقين فيطلب منـــه أصـــحابه أن يشـــمل المقصرين – كذلك – بالدعاء لهم بالرحمة . وأنعم به دعاء .

ويفاجئهم الرد النبوى بغير ما يترقبون ، وذلك بالدعاء ثانية للمحلقـــين فسيألون الدعاء للمقصرين ، فيفاجئهم أخرى بالدعاء للمحلقين – وهذا علـــى غير ما ينتظرون – فيراجعونه – ﷺ – وقد (عهد من الصحابة مـــراجعتهم للنبى – ﷺ – إذا لم يقع لهم البيان الشافى من أول مرة ، انتظاراً للجـــواب الحاسم ، الذى قد يؤخره النبى – ﷺ لغرض من الأغراض إلى ما بعد الثانية أو الثالثة)(١) .

وفى الثالثة أو الرابعة (٢) يحقق لهم طلبتهم بالدعاء للمقصرين .

---

(١) المختار من كنوز السنة د/ محمد عبد الله دراز ص ١٢٨ تقـــديم : بخـــارى عبـــده ط: دار الأنصار .

(٢) صرحت رواية ابن خزيمة فى صحيحه ٢٩٩/٤ والطبرانى فى الأوسط ١٩٩/٣ وأبى نعـــيم الأصبهانى فى مسنده المستخرج على صحيح مسلم ٣٨١/٣ أنه ﷺ دعا للمحلقين ثلاثا وفى=

وخرج جوابه -ﷺ- مخرج أسلوب الحكيم من حيث مفاجأتهم وعدم توقعهم الدعاء ثلاثا للمحلقين ، وهم فى كل مرة يسألون الرحمة للمقصرين فيأتى الجواب أولا وثانياً وثالثاً مبدداً لهذا التعلق ، ثم يجيبهم فى الرابعة .

وفى سلوك الجواب النبوى هذا المسلك توجيه للأذهان ولفت للانتباه إلى علو منزلة المحلقين ، فهى – بلا شك – قد فاقت منزلة المقصرين . ولعل الإمام ابن خزيمة قد استصحب هذا حين عنون لباب هذا الحديث بقوله (الحلق فى الحج والعمرة واختيار الحلق على التقصير ، وإن كان التقصير جائزا) (١) .

فجوابه – ﷺ – بهذه الوتيرة قد دل على أن الحلق أفضل وأرفع درجة من التقصير ، بدليل تكرر الدعاء للمحلقين . الأمر الذى حدا بالصحابى – وقد سمع ذلك الفضل – أن يقول : (وما يَسُرنى بحلقى حظ عظيم أو حمر النعم)(٢) ، وفى رواية (فما يسرنى بحلق رأسى يومئذ حمر النعم)(٣) .

ولكن : لماذا اكتسب المُحلقّون كل هذا الفضل ففازوا بأوفر الثواب وأجزله ؟

لا ريب أن ذلك منشؤه ابتدارهم أمره – ﷺ بالامتثال ، وكمال تطبيقهم لسُنة الحبيب – ﷺ – هذا فى سياقه العام ؛ فإذا ما استدعينا السياق الخاص

=الرابعة دعا للمقصرين . وقال بعضهم : بل دعا للمقصرين فى الثالثة لأنه – ﷺ كان لا يُسأل بعد الثالثة . فلو لم يجبهم فى الثالثة ما سألوه .

(١) صحيح ابن خزيمة ٢٩٩/٤ – كتاب المناسك – الباب الثلاثون بعد الثلاث مائة .

(٢) التاريخ الكبير للبخارى ٣٠٠/٧ .

(٣) الإصابة ٧٢٤/٥ .

للحديث – وأعنِى به ملابسات وروده – تَكشَّف لنا وبوضوح – مـــن أيـــن للمحلقين بهذا الفضل ؟

فقد ذكر غير واحد من أئمة الحديث أن سياق هذا الحديث قد جرى يوم منعت قريشُ الرسول – ﷺ – وصدّقه عن البيت الحرام على أن يرجع العام القابل ، وصالحهم الرسول على ذلك الحديبية (١) ، وأمر أصحابه بالتحلـــل من إحرامهم فتوقف بعض الصحابة (لطمعهم بدخول مكة فى ذلك الوقت)(٢) (وكان من تأثير ذلك الموقف وشِدتّه أن دخل رسول الله – ﷺ – الخيمـــة ، فقال : يا أم سلمة : ألا ترين أن الناس لا يحلقون ؟ فقالت : يا نبى الله بأبى أنت وأمى احلق أنت ، فلو قد رأوك حلقت لقد فعلـــوه ، فحلـــق رســـول الله – ﷺ – فأخذ الناس يحلقون ، ومـــنهم مـــن قصـــرّ . فقـــال اللهـــم اغفـــر للمحلقين...) (٣) فحُقّ للمحلقين الفوز بهذا الدعاء !

أما المقصرون شعورهم فقد حُرموا الدعاء لهم ثلاثا – فضـــلا عـــن تأخيره – لأنهم كمن شك فى الفعل (وهذا ليس شكاً فى أصل الفعـــل إنمـــا الشك هنا ضيق الصدر بذلك الفعل ، فقد احتاجوا إلى أن يحلقوا وهـــم فـــى إحرام ولم يحلوا بعد ، لأن السبيل كان عندهم فى الجاهليـــة وراثـــة : أن لا يحل أحد من إحرامه دون الطواف بالبيت ، فلما أمرهم بـــالحلق اســـتعظموا ذلك وضاقت صدورهم ، ثم اتبعوه فقصروا ، كأنهم على كراهية شديدة وهذا من خلق النفس وكزازته فحرموا الـــدعوة للكـــزازة التـــى فـــيهم وركـــوب الهوى)(٤) وهذا ما يعضده جوابه عن اســـتفهامهم فـــى الروايـــة الأخـــرى

---

(١) قال ابن عبد البر " وكونه فى الحديبية هو المحفوظ " . النووى على مسلم ٥٠/٩ .

(٢) النووى على مسلم ٥٠/٩ .

(٣) نوادر الأصول فى أحاديث الرسول ٣٢٠/١ .

(٤) السابق .

(...قالوا يا رسول الله ما بال المحلقين ظاهرتَ لهم بالترحم ؟ قال : لأنهم لم يَشُكّوا) (١)

وقال بعض أهل العلم إن سياق هذا الحديث دار يوم حجة الوداع وعن مناسبة تكرير الدعاء للمحلقين فى هذا الموقف يذكر ابن الأثير أن :-

(أكثر من حج معه - ﷺ - لم يَسُقْ الهَدْى ، فلما أمرهم أن يفسخوا الحج إلى العمرة ثم تحللوا منها ويحلقوا رؤوسهم ، شَقّ عليهم ووجدوا فى أنفسهم من ذلك ، وأحبوا أن يأذن لهم فى المقام على إحرامهم ، حتى يُكملوا الحج فلما لم يكن لهم بُدّ من الطاعة كان التقصير فى أنفسهم أخفّ من الحلق)(٢) .

وكان حريا بهؤلاء المسارعة إلى أمر رسول الله - ﷺ - تلبية فعليه ، فطاعته - ﷺ - أولى لنا ولهم ، وقد سبقهم - مبادرة إلى تنفيذ الأمر - المُحلقّون ففازوا بتكرار الدعاء لهم . وحُقّ لهم أن يسبق الدعاء لهم غيرَهم كما سبقوا هم غيرَهم . والجزاء من جنس العمل .

وحاز المحلقون هنا هذه الكرامة - التى لم تكن لغيرهم - لكون الحلق فيه خروج على المألوف من عادات الناس ، وهذا ما يتسق وروح الحج ومظهره العام ، وللخطابى هنا كلام رائق حيث يقول :-

إن عادة العرب حب توفير الشعور والتزين بها ، والحلق فيهم قليل ، وربما رأوه من الشهرة ... فكرهوا الحلق واقتصروا على التقصير)(٣) .

---

(١) مسند أبى يعلى ١٠٦/٥ ، شرح الزرقانى على موطأ مالك ٤٦٤/٢ ، فتح البارى ٦٥٩/٣ .
(٢) النهاية فى غريب الحديث ٤٢٧/١ .
(٣) شرح الزرقانى ٤٦٣/٢ .

وهذا لا يتنافى مع استحقاقهم هذا الشرف لكونهم أسرعوا فـــى إجابـــة أمره – ﷺ – وهذا أدخل فى كمال الطاعة .

وأيما كانت مناسبة ورود الحديث ، فإن جوابه – ﷺ – لم يَخْلُ مـــن معنى العتاب على المقصرين شعورهم ، وهو عتاب سيق فى نسق يتناغم مع ما يكتنفه أسلوب الحكيم من ترفق وعدم مجابهة المخالف فى الرأى ، وتوجيه نظره إلى ما كان ينبغى أن يفعله فى إطار من عدم الغلظة والفجاجة .

وقد اُشتمتْ رائحةُ هذا العتاب المهذب من ناحيتين فى التركيب :-

أحـــدهما : تأخير الدعاء للمقصرين – حتى الثالثة – رغم شديد تعلقهم به وتطلعهم إليه .

ثانيهما : حذف فعل الدعاء " ارحم " من جانب المقصرين ، وتكـــرار إيراده فى جانب المحلقين . وربما كشف عنه قـــولهم فـــى الروايـــة آنفـــة الذكر " ... ما بال المحلقين ظاهرت لهم بالترحم " ؟

ولا أستبعد أن تكون ثمت مشاكله بين مخالفة الجواب لمقتضى الظاهر – والتى تمثلت فى تكرير الدعاء للمحلقين ، ثم فى تأخير الدعاء للمقصرين ، زيادة على حذف فعل الدعاء – وبين مخالفة المُقصّرين لصريح تكليفه – ﷺ بتوانيهم عن تلبية الأمر النبوى ابتدارا . فهذه ربما كانت بسبب من تلك .

ومع هذا كله فجوابه – ﷺ – قد نمّ عن سُـــموّ أدبـــه وعظـــيم خلقـــه – ﷺ – حين لم يمنعه عتابه على المقصرين أن يدعو لهم وذلك امتثالاً لأمر ربه :-

(وأما السائل فلا تنهر) (١) فصلى الله وسلم وبارك عليه .

---

(١) الضحى : ١٠ .

سبق أسلوب الحكيم بما يؤذن بالمخالفة

من الملاحظات البيانية – كذلك – فى أسلوب الحكيم فى البيان النبوى أنه قد يُسبق بما يؤذن بالمخالفة بين مراد السائل ومقصود المجيب ، والحال هنا أشبه بالتسهيم أو الإشعار بأن ما يأتى بعد مخالفاً لمطلوب السائل . ومن ذلك ما روى : عن أبى سعيد الخدرى أن أعرابياً سأل رسول الله عليه وسلم عن الهجرة . فقال : وَيحَك إنَّ الهجرةَ شأنُها شديد ، فهل لَك من إبل ؟ قال : نعم . قال : فتُعطِى صدَقَتَها ؟ قال : نعم . قال : فهل تَمنح منها ؟ قال : نعم. قال : فتحلِبُها يوم ورودِها ؟ قال : نعم . قال : فأعمل من وراء البحار ، فإن الله لن يَترِكَ من عملك شيئاً .

البخارى : مناقب الأنصار – هجرة النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة – فتح البارى ٣٠٢/٧ حديث ٣٩٢٣ .

مسلم : المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام ١٤٨٨/٣ – أبو دواد : الجهاد – ما جاء فى الهجرة النسانى : البيعة – باب شأن الهجرة – المنتقى لابن الجارود ٢٥٧/١ – باب الهجرة .

مقام الحديث كاشف عن حرص الصحابة على استباق الخيرات وولوج أبواب القربات فالأعرابى يسأل رسول الله ﷺ عن الهجرة ، والمراد بها كما يذكر النووى : (ملازمة المدينة مع النبى ﷺ وترك أهله ووطنه)(١) وكانت هذه الهجرة واجبة قبل الفتح الأعظم (٢) ثم نُسخت بحديث (لا هجرة بعد

---

(١) النووى على مسلم ٩/١٣ .

(٢) ينظر : تفسير القرطبة ٣٠٨/٥ – عند تفسير قوله تعالى ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً... ﴾ النساء ٨٩ .

الفتح ولكن جهاد ونيّة)(١) فيجيبه ﷺ بقوله " ويحك (٢).إن الهجرة شأنها شديد " والمراد أن (القيام بحق الهجرة شديد لا يستطيع القيام به إلا القليل)(٣) وكان هذا الجواب بمثابة الإيماء إلى رأيه ﷺ وإلى ما سيأتى من ردّ (٤) وعليه فقد سُبق أسلوب الحكيم هنا بما يشى وينمّ ويومى إلى وجه الجواب ، وأن الرسول ﷺ سيصرفه عما سأل .

وعليه فجملة " ويحك " فى حد ذاتها مفاجأة للسائل . إذ الرجل وكأنى به يتوقع أن يؤذن له بالهجرة لكن الأمر جاء على غير ما يتوقع .

ولم يُرد الرسول ﷺ أن يرجع الرجل كاسف البال حزين الفؤاد على ما فاته من ثواب الهجرة ، وشرف ملازمة الحبيب المصطفى ﷺ فى مدينته . فاستفهمه (فهل لك من إبل ؟ فتعطى صدقتها ؟ فهل تمنح منها ؟ فتحلبها يوم ورودها ؟) والرجل يجيب، فى كل بـ " نعم " .

وهنا يطمئنه الرسول ﷺ ويبدل أسفه بشرى بقوله :-

(فاعمل من وراء البحار (٥) فإن الله لن يترك (٦) من عملك شيئاً) .

---

(١) فتح البارى ٦/٦ حديث ٢٧٨٣ .

(٢) ويحك : كلمة تقال لمن أشرف على هلكة لا يستحقها . أنظر : لسان العرب .

(٣) عون المعبود ١١١/٧ .

(٤) على شاكلة الإيماء إلى وجه بناء الخبر فى نحو قوله تعالى : " إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا " الكهف ١٠٧ " .

(٥) البحار يراد بها هنا : القرى . ويقال للقرية : البحرة لا تساعها ، والعرب تسمى المدن والقرى البحار (النهاية فى غريب الحديث ١٠٠/١ ، لسان العرب : بحر) .

(٦) يترك : بكسر التاء وفتح الراء من وتر : يتر يعنى : ينقص ووردت رواية بلفظ (يَتْرُك) من الترك .

أى : (أعمل بالخير فى وطنك وحيث ما كنت فهو ينفعك ولا ينقصك الله منه شيئاً)(١)

وعليه فقد خرج جوابه ﷺ مخرج أسلوب الحكيم ، حيث لفت انتباه الرجل إلى الأولى بحاله والأنسب ، فصرف قلبه إليه وعلق اهتمامه به .

فيُحصّل وهو فى مكانه من الثواب ما يُحصّله بهجرته إلى مدينة رسول الله ﷺ ، ويشير إلى هذا المعنى قول الخطابى (أنك قد تدرك بالنية أجر المهاجر وإنْ أقمت من وراء البحر وسكنت أقصى الأرض)(٢) .

ولعل الرسول ﷺ قد خاف على رجل (أن لا يقوى على القيام بحق الهجرة ، ولا يقوم بحقوقها وأن ينكص على عقبيه فلم يجبه إليها)(٣) لا سيما إذا عرفنا أن الرجل كان ذا إبل ويريد الهجرة ، على نحو ما بيته رواية أبى يعلى : (... يا رسول الله إنى لى إبلاً وإنى أريد الهجرة فما تأمرنى؟)(٤)

ولعل هذه الرواية تكون – بذلك – قد كشفت عن سر اختصاص الإبل بالذكر ، وسر كون دفع زكاتها ومنحتها يعدل ثواب الهجرة إلى رسول الله عليه وسلم ، فقد تبين بذلك أن هذا هو الملائم لحال الرجل تمام الملائمة .

---

(١) النووى على مسلم ٩/١٣ .
(٢) عون المعبود ١١١/٧.
(٣) النووى على مسلم ٩/١٣ ، وعون المعبود ١١١/٧.
(٤) مسند أبى يعلى ٤٥٧/٢ .

ولا ريب أنَ جوابه ﷺ حين خرج مخرج أسلوب الحكيم قد وسّع على الناس ضيقاً سعة تتناسب وروح الإسلام (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) (١) ، (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)(٢) .

وجوابه ﷺ هنا يُمثّل – كذلك – صورة بارزة من صور مراعاة المخاطب ، والتى تعد باب البلاغة الأوسع .

تضام بعض الأساليب مع أسلوب الحكيم فى الترفق بالمخاطب :

ومن عجيب التركيب هنا أن يتضام إلى أسلوب الحكيم حذف أداة الاستفهام فى قوله ﷺ (فتعطى صدقتها ؟) ، (فتحلبها يوم ورودها ؟) فيفيد هذا الحذف السعة والتخفيف وذلك لكثرة دورانه على الألسنة ، والعرب تتجوز فيما كثر وروده على اللسان ما لم تتجوزه فى غيره ، فضلا عن كون المقام هنا يناسبه الحذف لا البسط ، وذلك لسرعة الوصول إلى ما ينبغى لفت النظر إليه ، فيتناغم التخفيف الناشئ من الحذف هنا مع التخفيف المراد من أسلوب الحكيم تناغما بديعاً ، زيادة على ما فيه من ترفق وولوج إلى المستفهم عنه بهمس رقيق ، يناسب ما يهدف إليه أسلوب الحكيم من توخى تنبيه المخاطب ولفت انتباهه بألطف وجه .

ويضاف إليه أن ورود الكلام على طريق الاستفهام يفيد – من جملة ما يفيد – تضاعف يقظة المسئول إن كان يقظا ، وتنبهه – إن كان غافلاً –

---

(١) الحج : ٧٨ .

(٢) البقرة : ٢٨٦ .

وتجدد نشاطه إن كان قد فتر – فيقع أسلوب الحكيم بعده وقد صادف يقظة وانتباها لما سيلقى فيستقر أيما استقرار . وقد كان (١) .

وفى الحديث دلالة على أن (استقراره بوطنه إذا أدىّ زكاة إبله يقوم مقام ثواب هجرته وإقامته بالمدينة)(٢) .

---

(١) وهذا ما تربوا إليه مدارس التربية الحديثة اليوم : من أن المعلم لا ينبغى أن يعطى طلابه ما يريد إلقاءً كاملاً دون مشاركتهم له وتفاعلهم معه ، فإن ذلك من شأنه أن يجعلهم سلبيين وهذا فى الوقت ذاته لا يضمن استقرار ما يلقى عليهم فى أذهانهم .

(٢) فتح البارى ٣/٣٧٠ .

أسلوب الحكيم وتوجيه السائل إلى ما يستطيعه

من السمات البارزة لأسلوب الحكيم فى البيان النبوى أنه تدرج بالمخاطب فى توجيه عنايته للأولى ، فعلى المسئول أن يصرف سائله إلى ما يستطيعه ، ومن هذا ما روى عن ثَوْبَان - ﷺ - قال : لما نَزَلَتْ (والذينَ يكْنزُون الذَّهَبَ والفضة) قال : كُنَّا مع النبى - ﷺ - فى بعض أسفارِه ، فقال بعضُ أصحابه :- أُنزل فى الذهب والفضة ما أُنزل ، لو علِمْنا أىُّ المالِ خَيْرُ فنتخَذَه ؟ فقال :- أفْضَلُه لِسانُ ذاكر وقَلْبُ شاكر وزَوْجَةُ مؤمنة تُعِينُه علَى إيمانِه) .

الترمذى : تفسير القرآن - ما جاء فى سورة التوبة ، أحمد : باقى مسند الأنصار

فقد كشف الحديث عن سياق أحداثه وملابساته ، فالصحابة مع رسول الله - ﷺ - فى بعض أسفاره وقد أهمّهم ما نزل من القرآن فى شأن الكانزين الذهب والفضة (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) (١) .

وإنما شق ذلك عليهم (لأنهم حسبوا أنه يُمنع مطلقا ، وإن كان من تَأثَّل مالاً جَلَّ أوقَلَّ فالوعيد لا حقُ به)(٢)

فاستفهموا سيدنا رسول الله ﷺ (لو عملنا أى المال خير فنتخذه ؟) وكان مقتضى الظاهر أن يأتى جوابه - ﷺ - من جنس ما سألوا ، فهم يسألون عن أصناف أخرى من المال تكون محمودة الاتخاذ - بعد ما نزل فى

---

(١) التوبة : ٣٤ .

(٢) عون المعبود ٥/٥٦ . وتأثل المال : اتخاذه أصلاً للنفس وجمعه - انظر : الفائق فى غريب الحديث ، لسان العرب (أثل) .

الذهب والفضة ما نزل – لكنه أجابهم ﷺ بغير ما يترقبون لفتا لا نتباهم وتوجيها لاهتماماتهم إلى ما ينفعهم كل النفع ، وهو قوله – ﷺ – (أفضله لسان ذاكر وقلب شاكر ...)

وفى رواية أخرى (ألا أخبركم بخير ما يكنز ؟) (١) فخرج كلامه ﷺ هنا مخرج أسلوب الحكيم .

وتبرز بلاغة أسلوب الحكيم هنا من توجيه عناية السائلين إلى الأهمّ والأنفع والأبقى لهم ، وفى ذلك ما فيه من التسلية لهم والسلوان وخير العوض ، وجوابه بهذا يقوى عزائمهم ويحضهم على الصبر على حالهم ، فالصابرون على خير و (إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)(٢) ولعل هذا مفاد من قول العلامة المناوى – بين يدى هذا الحديث – (أوحى الله إلى داود عليه السلام تخلق بأخلاقى ومن أخلاقى أننى أنا الصبور)(٣) .

كما تبرز بلاغة أسلوب الحكيم هنا من كونه إرشاداً للمخاطب بلطف وذوق عال وهو هنا فى حاق موضعه ، فالصحابة لفرط حيائهم من الرسول ﷺ ناب عنهم سيدنا عمر فى عرض سؤالهم على سيدنا رسول الله ﷺ ، وعلى نحو ما كشفت عنه رواية (... لما نزلت هذه الآية " والذين يكنزون الذهب والفضة " كَبُر ذلك على المسلمين ، فقال عمر – ﷺ – أنا أُفرّج عنكم فانطلق فقال : يا نبى الله : إنه كَبُر على أصحابك هذه الآية)(٤) فبادلهم الرسول ﷺ – بهذا الجواب – حياء بحياء وإن كان له منه النصيب الأوفى .

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٥٦٧/١ . حديث ١٤٨٧ (ك: الزكاة) .
(٢) الزمر : ١٠ .
(٣) فيض القدير ٤٦٥/١ .
(٤) المستدرك على الصحيحين ٥٦٧/١ .

ثم تبرز بلاغة جوابه – ﷺ – من زوايةٍ أخرى وهى أنه صرفهم إلى ما يستطيعونه ويقدرون عليه ، وقريب من هذا قوله ﷺ للسيدة فاطمة – وقد أتته تسأله خادما يعينها على مئونة البيت وتشتكى ما تلقى من الرحى فى يدها .

(ألا أدلك على ما هو خير لك من خادم ؟ تسبحين ثلاثاً وثلاثين وتحمدين ثلاثاً وثلاثين وتكبرين أربعاً وثلاثين حين تأخذين مضجعك) (١)

ثم يكتسب جوابه – ﷺ – الذروة من البلاغة البشرية من حيث جمع الشيء من أطرافه ، فقد دلهم على مجامع الخير وأبواب الرضا عن مقدور الله وهى : اللسان الذاكر والقلب الشاكر والزوجة المعينة لزوجها على إيمانه، لا المعينة عليه شيطانه .

فمن تبصّر فى مسالك السخط على المقدور وجد وراءها : إما قلباً غافلاً أو قلباً جاحداً لا يرعى نعمة ولا يقرّ بفضل ، أو زوجة تُحمل زوجها ما لا طاقة له فيتوارى من أمام عينيه الاعتراف بنعم الله التى يجريها عليه . بل ربما دفعت به إلى طريق الحرام إشباعاً لرغباتها غير المتناهية . ولذا جاء فى الرواية الأخرى (وزوجة لا تبغيه خوناً)(٢) وفى رواية (وزوجة لا تبغيه حوبا فى نفسها وماله) (٣) .

---

(١) تقدم ذكره ص ٢١ من هذا البحث .

(٢) فيض القدير ٤٦٥/١ . أى لا تطلب خيانة .

(٣) الترغيب والترهيب ٢٨/٣ .

وتتجلى أهمية مادلهم الرسول ﷺ عليه ووجههم إليه من كون الـــذاكر جليس الله تعالى (١) – فلا يفتأ يذكر ربه بحمد وتمجيد على ما أنعم وأولى ، وكفى بالإسلام نعمة .

ثم إن القلب الشاكر يستجلب المزيد من نعم الله وآلائه ، على حدّ قول الله تعالى : " لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ " (٢) .

والمرأة المُعينة لزوجها على أمر دينه ودنياه هى خير ما يكنز المرء ، ولذا فهى أنفع من الذهب ، فإن الذهب لا ينفع إلاّ بعد الذهاب ، وهـــى مـــا دامت معك رفيقتك تنظر إليها فتسرك ، وتقضى إليها وطرك ، وتشـــاورها فيما يعنّ لك فتحفظ سرك ، وإذا غبت تحامى مالك وترعى عيالك ، ولو لـــم يكن إلا أنها تحفظ بذرك وتربى زرعك لكفى به فضلاً)(٣) ثم إن الذهب ما سمى ذهباً (إلا لأنه يذهب والفضة لأنها تنفض فتتفرق ، ومنه قوله تعـــالى (لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) (٤) .

ولم – يشأ ﷺ – أن يتركهم دون تصحيح مفهـــومهم للآيـــة الكريمـــة (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ...) فجاءت الرواية الأخـــرى موضـــحة المقصود ومبينة للمراد (إن الله لم يفرض الزكاة إلا لُيطيّب مـــا بقـــى مـــن أموالكم وإنما فرض المواريث ، وذكر كلمة لتكون لمن بعدكم " فقال : فكبر عمر ، ثم قال له : ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء ؟ المرأة الصـــالحة : إذا

---

(١) على ما جاء فى الحديث القدسى (أنا جليس من ذكرنى) الجامع الصغير ٣٠٤/١ ، شعب الإيمان للبيهقى ٤٥١/١ ، الزهد لابن حنبل ٥٧/١ .

(٢) إبراهيم : ٧ .

(٣) فيض القدير ٤٦٥/١ وشرح الطيبى ١٤٨٠/٥ .

(٤) تفسير القرطبى ١٢٣/٨ والآية ١٥٩ من سورة آل عمران .

نظر إليها سرته ...) ([1]) فتبين أن الترهيب والوعيد الوارد فى الآية منصبّ على (منع الزكاة لا الجمع مطلقاً ... ولو كان الجمع محظوراً مطلقاً لما افترض الله الزكاة ولا الميراث)([2]) .

ويكتسب جوابه ﷺ – بلاغته – فى هذه الرواية – من ترقيه بهم والأخذ بناصيتهم إلى مدارج العلا ، فحين بين لهم أنه (لا حرج عليهم فى جمع المال وكنزه – ما داموا يؤدون الزكاة – ورأى استبشارهم به أرشدهم إلى ما هو خير وأبقى)([3]) ويعنى به : اللسان الذاكر والقلب الشاكر والزوجة الصالحة .

وجوابه – ﷺ – فى هذه الرواية – قد خرج بهذا الترقى إلى باب أسلوب الحكيم ، وذلك لأنه – ﷺ – تلقى مخاطبه " سيدنا عمر " – ﷺ – بخلاف ما يترقب ، (فإن عمر – ﷺ – ترقب فى أمر المال ما يزيل الحرج عن اقتنائه ، فتلقاه رسول الله – ﷺ – بما حصل رضاه وزاد على ما توخاه)([4]) .

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٥٦٧/١ . وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

(٢) عون المعبود ٥٦/٥ .

(٣) شرح الطيبى ١٤١٨/٥ .

(٤) شرحَ الطيبى ١٤١٨/٥ .

أسلوب الحكيم وتصحيح المفاهيم

لا يخفى على ذى بصر أن للأساليب البلاغية دوراً منوطا بها ، مثل تربية الحياء والذوق ، واستثمار التعويل على العقل ، واستفزاز ملكات تفكير المخاطب ليكون شريكاً فاعلاً فى الكلام . ومن الأدلة على ذلك ما نجده هنا من تصحيح أسلوب الحكيم للكثير من المفاهيم لدى المخاطب ليستبصر الطريق ومن ذلك ما روى عن علىّ - ﷺ - قال " كنا فى جَنازة فى بَقيع الغَرْقَد ، فأتانا رسولُ الله - ﷺ فقعَد وقعدنا حولَه ، ومعه مخْصَرَة ، فنكس فجعل ينكتُ بمخْصرته ثم قال : ما منكم من أحَدٍ ، وما من نَفْس مَنْفُوسة إلا كُتِب مكانُها من الجنة والنار ، وإلا قد كُتبت شقية أو سعيدة . قال رجُلُ : يا رسولَ الله أفلا نتّكلُ على كتابِنا ونَدَعُ العَمَل ، فمنْ كان منا من أهل السَّعادة فسيصيرُ إلى أهل السعادة ، ومن كان مِنا من أهل الشقاء فسيصير إلى عمل الشقاوة ؟ قال : أما أهل السعادة فيُيسّرون لعمل أهل السعادة وأما أهلُ الشقاوة فيُيسّرون لعمل أهل الشقاء ، ثم قرأ " فأما من أعطى واتقّى وصدّق بالحسنى " الآية .

البخارى : التفسير باب " وكذب بالحسنى " حديث ٤٩٤٨ - فتح البارى ٨/٥٧٩ .

مسلم : (القدر . كيفية خلق الآدمى فى بطن أمه)

فقد حلق بنا هذا الهدى فى رحاب قضية قديمة حديثة مفادها :-

إذا كانت المقادير محددة سلفا فما قيمة عمل المرء إذن ؟

وعليه إذا قلنا إن الحديث يندرج تحت جملة الأحاديث التى تصحح المعتقد والمفاهيم عند الكثير لم نذهب بعيداً .

فالرسول – ﷺ – قد فرغ لتوّه من جنازة ، وكعادته ﷺ يستثمر الحدث ليتخول أصحابه بالموعظة ، فيُذكرّهم أنه ما من نفس منفوسة إلا كُتب – ابتداء – مكانُها من الجنة أو النار ، كما كُتبتْ سعادتُها أو شقوتها .

وهو ما أثار سؤال الصحابى ، يا رسول الله : أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل ؟ وفى روايات أخرى (ففيم العمل ؟)(١) بل ترتفع نبرة الاستغراب والحدة السؤال كما فى رواية (... فقال الأعرابى : فما جاء بى أضرب من وادى كذا وكذا إن كان قد فُرغ من الأمر ؟ فنكت النبى – ﷺ – فى الأرض حتى ظن القوم أنه وَدَ أنه لم يكن تكلم بشيء منه)(٢) .

فأراد النبى – ﷺ – وقد رأى من السؤال خلطا للمفاهيم – أن ينبههم على أن تحديد المقدور أزلاً لا يعنى ترك العمل والاتكال على قضاء الله دون التشمير فيما يُقرّب إليه ، لأن هذا التحديد ليس جبرا أو قهرا يتنحى معه سعى المرء واختياره ، إنما هو إخبار عن الغيب .

فقال لهم " اعملوا فكل ميسر لما خُلق له " (٣) وهو إجمال يُفصّله قوله فى روايتنا :– (فمن كان منا من أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة ، ومن كان منا من أهل الشقاء فييسرون لعمل أهل الشقاء) .

وكما نرى لم يُجبهم ﷺ عن سؤالهم بما يتوقعونه ، وهو أمره لهم بترك العمل مادام القدر قد سبق بما هو كائن ، إنما وجههم للذى هو أليق بحال

---

(١) فتح البارى ٥٠٣/١١ حديث (٦٦٠٠) ، شرح الطيبى ٥٥٨/٢ ، المعجم الكبير ١٢٠/٧ .

(٢) ذكره الطبرى عند تفسير قوله تعالى " فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى " ٢٢٤/٣٠ ولمْ أعثر عليه– فيما وقفت عليه– من كتب الحديث .

(٣) البخارى حديث ٤٩٤٥ ، ٤٥٤٧ ، شرح الطيبى ٥٣٨/٢ .

المرء من حيث كونه عبداً لله ، فهو مأمور بعمل ظاهر ما أمر به ومنهى عن الاتكال على ما كتب له ، فكل إنسان مهيئ ومصروف لما خُلق له بحكم الكتاب الذى سبق عليه .

ولله درّ الغزالى حين ذهب إلى أن هذا الحديث بيان لكون (الخلق مجارى قدر الله ومحل أفعاله وإن كانوا هم أيضا من أفعاله ، لكن بعض أفعاله محل لبعض)(١) .

فجاء جوابه - ﷺ - " اعمّلوا " وفى الرواية الأخرى (سددوا وقاربوا فإن صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة)(٢) من باب أسلوب الحكيم . أى (فيم أنتم من ذكر القدر ، وإنما خلقتهم للعبادة فاعملوا فسددوا وقاربوا)(٣) وعليه فقد (منعهم عن الاتكال والترك وأمرهم بامتثال ما يجب على العبد من امتثال أمر ربه وعبوديته عاجلا وتفويض الأمر إليه آجلا ، يعنى : أنتم عبيد ولا بد لكم من العبودية ، فعليكم بما أمرتم وإياكم والتصرف فى الأمور الإلهية لآية " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون " * فلا تجعلوا العبادة وتركها سببا مستقّلا لدخول الجنة والنار بل هى أمارات وعلامات)(٤) بتنبيه لطيف وتوجيه رشيد .

ومن ثم كان أسلوب الحكيم علاجا للسلوك وتصحيحا لمفاهيم مغلوطة .

---

(١) فيض القدير ١٢/٢ .

(٢) فتح البارى ٤٩٦/١١ ، الطيبى ٥٣٨/٢ .

(٣) شرح الطيبى ٥٦٠/٢ .

(*) الذاريات ٥٦ .

(٤) فيض القدير ١٢/٢ .

وتأتى بلاغة هذا الجواب من مجيئه على خلاف ما ينتظر السائل من الجواب وتزداد هذه البلاغة حين يكون (العدول فى الجواب عن موجب الخطاب لنكتة شريفة يقتضيها المقام أو نكتة لطيفة يرتضيها ذوو الأفهام)(١) ولذلك كما فى الحديث هنا :

فتوخى النبى - ﷺ - تنبيههم على خطأ فهمهم بألطف وجه ، ومن ثم كان أسلوب الحكيم من أوسع أبواب البلاغة تربية للذوق الإنسانى .

ولم يُخرج سُوء فهم السائل للقضية رسول الله - ﷺ عن المعهود عنه من حلمه وسعة صدره ، فعلى أقصى التقديرات لم يخرج انفعاله - ﷺ - عما صرحت به رواية الطبرى السابقة (... فنكت النبى ﷺ فى الأرض حتى ظن القوم أنه وَدَّ أنه لم يكن تكلم بشئ منه)

كما أفاد جوابه - ﷺ " أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة ... (أن التوفيق كله بيد الله عز وجل فمن يسر الله عليه اهتدى ومن لم ييسر عليه لم ييسر له ذلك ، ولذا كان النبى يقول فى دعائه " واهدنى ويسر الهدى لى)(٢) .

---

(١) رسائل ابن كمال باشا ص ٨٨ .

(٢) جامع العلوم والحكم .

أسلوب الحكيم وتوسيع المفهوم

سبق القول أن لأسلوب الحكيم دوراً فـــى تصـــحيح المفـــاهيم لـــدى المخاطب لا سيما حين يكون متشبثا به زائدة قناعته به ، وهنا يساعد أسلوب الحكيم فى توسيع مفهوم الشئ .

ومن ذلك ما روى عن عائشة أم المؤمنين – رضى الله عنها – قالت :

(قلت يا رسول الله ألا نغزو ونجاهد معكم ؟ – فقال:– لكـــن أحســـن الجهاد وأجمله الحَجُّ حَجٌّ مَبْرور . قالت عائشة : فلا أَدَعُ الحَجَّ بعَد إذْ سَمِعتُ هذَا منْ رَسُول اللهِ – ﷺ) .

البخارى : ك: جزاء الصيد ب : حج النســـاء . فـــتح البـــارى ٨٦/٤ حديث ١٨٦٠ .

يمثل هذا الحديث صورة كاشفة لسعى المرأة الحثيـــث فـــى منافســـة الرجال منازل الخير ومسالك العمل الصالح وأجمِلْ به من سعى وأكرِمْ بهـــا من منافسة !

فالسيدة عائشة تستفهم سيدنا رسول الله ﷺ عن غزوهن وجهادهن مع الرجال .

وتستفتح – رضى الله عنها – سؤالها بتصديره بأداة الحث والعرض(١) كاشفة بذلك عن أن هذه الرغبة – مشاركة الرجال الجهاد والغزو – قد ملكت عليها أركان النفس ، وفى ذلك إشارة بينة إلى عظيم مثوبة الجهاد ، الأمـــر

---

(١) ينظر : الجنى الدانى ٣٨٢ . منشورات دار الآفاق الجديـــدة – بيـــروت – ط ثانيـــة ١٤٠٣هـــ ١٩٨٣م ، تحقيق د/ فخر الدين قباوة ، محمد نديم فاضل .

الذى جعل النساء ينافسن الرجال ، فجاءت إجابته - ﷺ - على خلاف ما تتوقع السائلة - (لكن أحسن الجهاد وأجمله الحج حج مبرور) .

ويتصدر جوابه ﷺ بلفظة " لكن " المختلف فى ضبطها - فمنهم من ضبطها بفتح اللام وضم الكاف هكذا " لكنّ " على كونها خطابا لهن ، وإليه ذهب القابسى بقوله (وهو الذى تميل إليه نفسى)(١)

وذهب بعضهم إلى أنها (لَكِنَّ) التى هى للاستدراك . والرأى الأول أكثر فائدة (لأنه يشتمل على إثبات فضل الحج وعلى جواب سؤالها عن الجهاد)(٢) .

وعلى الحالين فلا يخلو التركيب من لطيفة ، فعلى كونها خطابا لهن أفاد التقديم هنا اختصاص النساء بكون الحج المبرور أفضل الجهاد وأحسنه . وفيه من تعجيل البشرى لهن ما يملأ القلوب بشرا وبهجة .

وعلى الوجه الثانى - كونها للاستدراك - فقد أفادت تجديد نشاط السامع ولفت ذهنه وجذب انتباهه إلى زاوية أخرى وهو بيت القصيد فى أسلوب الحكيم وجوابه ﷺ بخروجه على مقتضى الظاهر قد ولج باب أسلوب الحكيم ، إذ كانت النشوة والرجاء فى سؤال السيدة عائشة مؤذنان - حسب الظاهر - بالسماح لهن بما سمح به للرجال من حمل السلاح ...

لكن الرسول ﷺ يوجه عنايتهن - فى شخص السيدة عائشة - إلى الأليق بهن والأنسب لطبيعتهن التى فطرهن الله عليها . وهو حج المبرور وعليه فالحديث قد وسع دائرة الجهاد وفتح آفاقا رحبة له .

---

(١) فتح البارى ٣/٤٤٧ .

(٢) السابق .

ولذا إذا قلنا إن أسلوب الحكيم هنا قد عنى بتوسيع دائرة مفهوم الجهاد لدى المخاطب لم نبعد أو نشط .

كما يعد الحديث مظهرا من مظاهر قوة مخالفة المتكلم للمخاطب فـــى اعتقاده تمام المخالفة لكن فى تلطف بالغ وأدب راق ، يدلان على علو كعب هذا البيان الشريف . فلم يُجَابِه الرسولُ - ﷺ - السيدةَ عائشة برفض طلبها وعدم الإذن ، فكان ممكنا أن تُجاب بمثل (لا جهاد ولكن) أو ما شابه ذلـــك مما يفى ببيان الرفض .

لكنه يصرفها فى حنّو وتطييب خاطر إلى ما يعـــدل جهـــاد الرجـــال وغزوهم وهو " الحج المبرور " .

وهذا الترفق فى المخالفة ، والأدب العالى فى رد المخـــالف ، ولفـــت نظره إلى الأليق بحاله ، مناسب هنا لأدب السيدة عائشة البارز فى صـــياغة سؤالها :-

(ألا نغزو ونجاهد معكم ؟) فقد نم هذا التركيب عن حســـن تـــأدب وسمو ذوق منها - رضى الله عنها - حين آثرت أن تلج إلى ما تريد بالحث والعرض واللطف فى الطلب على صريح الطلب . وكان ممكنـــا أن يـــأتى التركيب (ائذن لنا بالغزو والجهاد)(١) لكن لا يخفى ما بين التركيبين مـــن بون .

---

(١) وردت أحاديث كثيرة على هذا النمط (... يا رسول الله ائذن لنا فى الاختصاء فقال رسول الله ﷺ : ليس منا من خصى أو اختصى ، إن خصاء أمتى الصيام . فقـــال : ائذن لنا فى السياحة . فقال : إن سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله) ، المعجم الكبيـــر ١٤٤/١١ ، شرح مشكاة المصابيح ٩٤٣/٣ .

ويتواصل البيان النبوى عطاء فيورد لفظة الجهاد – بما تحملـــه مـــن ظلال ومستتبعات – بين الحسن والجمال (لكن أحسن الجهاد وأجمله) وذلك لمناسبة طبيعة المخاطب " النساء " من رقة المشاعر ورقة الطبـــع ورهافـــة الحس ... .

وفى توسط لفظة الجهاد بين الحسن والجمال – كذلك – إيماء إلـــى أن الآتى ذكره – الحج – ليس من نوع الجهاد المعروف والذى جئن يستأذن فيه . وذلك لما فى الجهاد من دماء وأشلاء وبذل الروح ... (١) أما الحج فجهاد لهن فيه حسن وجمال يلائم فطرتهن .

---

(١) ونحن مأمورون بإيقاف المرأة أن تردّ مثل هذه المواطن التى لا تتحملها لرهافة حسها ورقة مشاعرها وغلبة عواطفها ، ويدل عليه ما رواه ابن الجوزى (عن الزبير أنـــه لما كان يوم أحد أقبلت امرأة تسعى ، حتى إذا كادت تشرف على القتلى قال : فكـــره رسول الله ﷺ أن تراهم ، فقال : المرأةَ المرأةَ . قال الزبير فتوسمْتُ أنها أُمى صفية، فخرجت أسعى إليها فأدركتُها قبل أن تنتهى إلى القتلـــى) ١هـــ . صـــفة الصـــفوة ٩٣٧٤/١ .

أسلوب الحكيم وتوليد المعانى

الراصد لأسلوب الحكيم فى بيان النبوة تستوقفه سمة من سماته وهـــى توليده للمعانى تتبّعه لفكرة ومن ذلك ما روى (عن أبى ذَرّ – ﷺ – قـــال : قلت يا رسول الله : ما آنية الحَوْض ؟ قال :–

والذى نفْسُ مُحَمّد بيده لآنيتُهُ أكثَرُ منْ عَدَد نُجُوم السَّماء وكَوَاكِبهـــا ألا فى الليلة المُظْلمة المُصْحية آنيةُ الجَنَّة ، مَنْ شَرِبَ منها لم يَظْمأ ، آخِرَ مـــا عليه يَشْخُبُ (١) فيه مِيزابَان من الجنَّة ، من شَرِبَ منْهُ لم يَظْمأ ، عَرْضُـــهُ مثْلُ طُولِه ، ما بين عمَّان إلى أيْلَة ، ماؤه أشدُّ بياضاً من اللَّبن وأحلَـــى مـــن العَسَل) .

مسلم :– الفضائل – حوض نبينا ﷺ . مسلم بشرح النـــووى ٦١/١٥ ط: دار الريان .

فالحديث هنا من جملة الأحاديث المُخبِرة عن أمر غيبى لا نعرف عنه فى دنيانا إلا ما أوقفنا الله ثم رسوله ﷺ .

ومقام الحديث دل عليه سياقه ، فسيدنا أبو ذر يسأل رسول الله ﷺ عن آنية الحوض يعنى : ما هيئتها وما كنهها ومن أى شئ تكـــون ؟ (٢) وهـــذا سؤال يتقضى أن تأتى الإجابة عنه كاشفة موضـــحة لماهيـــة هـــذه الآنيـــة وجنسها.

غير أن النبى – ﷺ – أجابه عن غير ما سأل ، فالسؤال عن ماهيـــة الآنية ، والجواب جاء عن كثرة عددها ، إشارة إلى أنهـــا الأهـــم الأعظـــم

---

(١) الشخب : السيلان .

(٢) يستفهم بـــ " ما " عن ماهية الشئ وجنسه . انظر المطول ٢٣٢، ٢٣٣ .

بالسؤال عنه والنظر فيه ، وعلى خلاف ما قد يراه البعض من أنه لا فائـــدة تذكر فى معرفة جنس آنية الحوض (فحوى سؤال السائل) فهو عندهم مـــن باب " علم لا ينفع وجهل لا يضرّ " فإنى أرى أن شـــيئا يتعلـــق بحوضـــه الشريف أو بالجنة عموماً فهو علم نافع يُثاب المرء عن طلبه والتماسه بإذن الله .

لكن الفائدة الكبرى والنفع الأعظم أراه فى معرفة كثرة آنية الحوض ، تلكم الكثرة التى يندفع بها محذور المدافعة على حوضه الشريف ﷺ .

ثم قد يكون الدافع على الخروج على مقتضى الظاهر – بيـــان كثـــرة الآنية لا جنسها – هو تقدم بيان جنسها فى رواية أخرى ، وهذا مـــا يؤكـــده حديث أنس ﷺ (... ثم ترى فيه أباريق الـــذهب والفضـــة كعـــدد نجـــوم السماء)(١) .

ولذا اهتم ﷺ ببيان كثرتها هنا . ومن هنا جاء جوابه علـــى طريقـــة "أسلوب الحكيم".

والرسول – ﷺ – بهذا يُشكّل عقل الأمة – فى شخص السائل – على قدح زناد الفكر فيما هو أهمّ وأنجع ، وفيما يترتب عليه العمل الأعظم .

فكم شغل المرء نفسه وأرهق عقله فى شعاب من التفكيـــر لا طائـــل تحتها وما عاد منها إلا بتبديد جهده وبعثرة وقته ، وهو يحسـ أنـــه يُحســـن صنعا .

وغير خاف أن الاهتمام ببيان كثرة آنية الحوض المورود مفيد فى بيان كثرة الشاربين منه ، الأمر الذى يثير عند السامع حنينـــه وشـــوقه ومزيـــد

---

(١) مسلم * الفضائل * باب إثبات حوض نبينا وصفاته – مسلم بشرح النووى ٥/٦٥ .

اشتهائه أن يكون من هؤلاء الشاربين ، مما يجعله لا يفتأ يردد (اللهم أوردنا حوضه ولا تفتنا بعده واسقنا من يده الشريفة شربة هنيئة لا نظمأ بعدها أبداً). وهذا من شأنه التحريض على العمل الصالح ، وإلهاب حماسة المخاطب فى التزود لهذا الفضل بكل ما يؤهله إليه ، ولمثل هذا فليعمل العاملون .

ولا يعكر على ما نحن فيه كون السؤال عن جنس آنية الحوض (سؤال السائل) يترتب عليه عمل هو الآخر ، من حيث كون آنية الذهب حرام على الأمة فى الدنيا حلال لها على حوضه ﷺ ففيه شحذ الهمم لاغتنام ذلك .

وذلك لأن جوابه – ﷺ صرف الذهن عن المهم إلى الأهم وعن النافع إلى الأنفع .

ولذا فإن الحديث معلم من معالم ترتيب الأولويات فى الذهن .

ويأتى القسم النبوى لتأكيد الأمر وإزالة استغرابه ، فضلا عن كونه أمراً غيبيا .

وتأمل التركيب هنا تجده يؤثر القسم بصيغة " والذى نفسى بيده " دون غيرها وفى هذا تمام اعتلاق وكمال ملاءمة بين النَفْس وبين الحوض وآنيته ... فكلاهما غيب . وهذا مناسب للمقام الدائر على لاحبه التركيب .

ثم تأمل اختصاصه ﷺ النجوم بالذكر دون غيرها ، تجدها أخدم للمقام وأولى بالسياق ، على نحو ما كشف عنه العلم الحديث ، فقد اكتشفوا أن النجوم (أطول أعماراً وأكثر أعداداً من المخلوقات الأخرى ، فقد قيل إنها تبقى ملايين بل مليارات السنين ، وقيل : إنها تتألف من عدد من المجرات ، يقدر بحوالى مائة مليار مجرة ، مقسمة قسمين : قزما وعملاقة ، فالمجرة

القزم تتألف من عشرة ملايين نجم ، والعملاقة يصل تعدادها إلى عشرة آلاف نجم ، وهى ليست ثابتة العدد وإنما تتزايد باستمرار)(١) .

فذِكْرُ النجوم فى مقام ذكر عدد آنية الحوض الشريف قد أصاب كبد المقام زيادة على ما يجمع بين الآنية والنجوم من الإشراق والتلألؤ .

والذى يلفت الانتباه هنا هو براعة التراكيب فى نقل السائل من وادى سؤاله إلى واد آخر ، استطرد البيان فى تعديد أوْصافه من أكثر من زاوية استثارة وحضا للسامعين .

فكان ممكنا أن ينتهى الجواب عند " ... لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها " ويظل الجواب بذلك فى دائرة أسلوب الحكيم ، لكنه شرع فى بيان انتفاء الظمأ أبد الآبدين عمن رزق الشرب منه ، ثم عرجَ التركيب على بيان منابع هذا الحوض ، فبين أن ميزانين من الجنة يسيلان فيه ، ثم انتقل التركيب إلى بيان طوله وعرضه ثم ختم بذكر شدة بياضه وحلاوة مذاقه . وهكذا ينقل الجواب النبوى السائل فى همس وبراعة من دائرة الانحصار فى آنية الحوض : ماهية وجنسا – وهى بلا شك دائرة ضيقة – إلى دائرة هى أرحب وأوسع ، وأولى بأن ينصرف التفكير إليها ، وهى دائرة الحوض ورى مائه وعظم سعته ...

والحديث بهذا تدريب للمجيب الفطن على كيفية توليد المعانى الرحبة من رَحِم السؤال الضيق .

---

(١) مظاهر الطبيعة فى الحصحيحن دراسة بلاغية ص ٢٢٥ مخطوط دكتوراه . صلاح حبيب سليمان كلية اللغة العربية بإيتاى البارود .

أسلوب الحكيم وبعض الفنون البلاغية الأخرى

تجدر الإشارة إلى أن ثمت تآزراً بين أسلوب الحكيم وبعض الأساليب البلاغية فى خدمة المعنى الكلى الدائر على لاحبه التركيب (١) ومن أمثلة ذلك اجتماع :

أسلوب الحكيم وسوق المعلوم مساق المجهول لنكتة

فقد يقترب أسلوب الحكيم فى جوابه من باب " سوق المعلوم مساق المجهول لنكتة " ، من حيث اشتراكهما فى إرشاد المخاطب وتنبيه السائل على أمر أهمّ ونكتة شريفة ، ومن ذلك ما روى (عن أبى هُرَيرة رضى الله عنه سُئِل رسولُ الله ﷺ : مَنْ أكرمُ النَّاس ؟ قال : أتْقَاهُمْ لله . قالوا : ليس عن هذا نسْأَلُك قال : فأكْرمُ النَّاس يُوسُفُ نَبىُّ الله ابنُ نبىِّ الله ابنُ خَليل الله . قالوا : لَيْس عن هذا نَسْأَلُك . قال : فعَنْ مَعَادن العَرَب تَسْألُونَنى ؟ النَّاسُ مَعَادنُ ، خيارُهُم فى الجَاهليّة خيارُهم فى الإسلام إذا فَقهُوا) .

البخارى :/ أحاديث الأنبياء . قوله تعالى " لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين " فتح البارى ٦/٤٨١ حديث ٣٣٨٣ . مسلم : الفضائل – باب: فضائل يوسف عليه السلام .

فالحديث يمثل لونا من ألوان الحوار بل هو صورة من صور الترقى فيه .

---

(١) سبقت الإشارة إلى اجتماع أسلوب الحكيم والحذف فى حديث (ويحك أن الهجرة شأنها شديد)

فقد سأل قوم رسول الله ﷺ عن أكرم الناس ؟ فأجابهم بأكرم الصفات وهى " التقوى " ، إشارة إلى قوله تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) (١) وجوابه ﷺ بهذا إخبار بأشمل الكرم وأعمه وأكمله وأوفاه .

وإنما كان هذا كذلك . لأنه (من كان متقياً كان كثير الخير ، وكثير الفائدة فى الدنيا ، وصاحب الدرجات العلى فى الآخرة) (٢)

فلما قالوا : ليس عن هذا نسأل ، أجابهم ﷺ بأكرم الرجال وذلك قوله - ﷺ - (فأكرم الناس يوسف نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله) .

وإنما حاز سيدنا يوسف هذا الفضل ، لأن أصل الكرم كثرة الخير (وقد جمع يوسف عليه السلام مكارم الأخلاق مّع شرف النبوة مع شرف النسب ، وكونه نبياً ابن ثلاثة أنبياء متناسلين ، وانضم إليه شرف علم الرؤيا وتمكنه فيه ورياسة الدنيا وملكها بالسيرة الجميلة وحياطته للرعية وعموم نفعه إياهم وشفقته عليهم وإنقاذه إياهم من تلك السنين وعليه فقد جمع يوسف عليه السلام خيرات الآخرة والدنيا وشرفهما)(٣) .

فلما قالوا : ليس عن هذا نسأل . استوضحهم رسول الله - ﷺ - بسؤاله (فعن معادن العرب تسألوننى ؟)

وهذا يوضح سر استفساره لهم هنا دون المرتين السابقتين ، فهنا بيت القصيد فى نظرهم . فضلاً عما فى هذا الاستيضاح والتقرير من إشمام برائحة التعريض بهم ، بأنهم لا يدركون من الأمور إلا ما كان جليا بارزاً ، يكاد يؤخذ بأيديهم إليه دون أدنى بذل لعقل أو تأمل .

---

(١) الحجرات : ١٣ .

(٢) النووى على مسلم ١٣٤/١٥ .

(٣) النووى على مسلم ١٣٥/١٥ ، بتصرف يسير وانظر فيض القدير ١٤٤/٢ .

أجابهم بقوله " الناس معادن ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا " ومعناه : (أن أصحاب المروءات ومكارم الخلائق فى الجاهلية إذا أسلموا وفقهوا فهم خيار الناس)(١) . ويدخل جوابه ﷺ باب أسلوب الحكيم من حيث تلقاهم بغير ما يتوقعون الجواب عن مرادهم ، وذلك لنكتة شريفة هى : استرعاء انتباههم ولفت كريم عنايتهم إلى ما أجابهم عنه أولاً وثانياً .

ثم إنى أجد فى تأخير البيان عن مرادهم إشارةً إلى قتل روح العصبية القَبَلِيّة المُطَلّة برأسها من خلف سؤالهم عن معادن العرب ، على حد قوله ﷺ فى الحديث الآخر (دعوها فإنها منتنة) (٢) .

وقد نحا ﷺ بهم منحى التدرج فى الجواب ، ويلاحظ أن التدرج هنا من الأعلى لما هو دونه ، فقد كان متوقعاً أن يفهموا عن رسول الله ﷺ مراده ، لكن هذا لم يقع ، فتدرج بهم حتى أبان لهم عن مقصودهم .

ثم تدبر معى سياق الحديث تجده محتملاً أحد أمرين :-

أولاً : أن الرسول - ﷺ - قد فقه مرمى سؤالهم ابتداء ، لكنه عمد إلى مخالفة الظاهر ، وأرجأ الجواب - لما سبق بيانه من نكات - وهذا اللون من البيان أقرب رحما بباب " تأخير البيان لعلة " عند الأصوليين ، إن لم يكن من أصوله ! وقريب كذلك من سوق المعلوم مساق غيره لنكتة " (٣) .

---

(١) النووى على مسلم ١٣٥/١٥ .

(٢) البخارى : التفسير - سورة المنافقون - باب ٥ حديث ٤٠٩٥ .

(٣) هذه تسمية السكاكى ، بينما أطلق عليه غيره " تجاهل العارف " ، وتسمية السكاكى أليق لورود الأسلوب فى كتاب الله .

ويلاحظ أن تكرار المخالفة لسؤال بعينه هنا قد رمت إلى لفت جديد للذهن لأمر أولى بالعناية وأجدر بالاهتمام ، ثم يأتى الجواب الحقيقىّ عن مراد السائل هناك فيذيّل به التركيبُ .

وأما الاحتمال الثانى :

فهو كون الرسول – ﷺ – لم يدرك مقصودهم من السؤال ابتداء ، فلما أجابهم بما توقع أن يكون محل نظرهم ، ودائرة الاعتبار عندهم ، ولم يكن ذلك أجابهم بما يتغيون .

وهذا الاحتمال لا يخرج جوابه ﷺ من أسلوب الحكيم فقد كانت إجابته – بالرغم من هنا – على غير ترقبهم فى الحالين الأولين .

غير أنه لو استقام هذا الاحتمال فإنه يحمل بين لفائفه تعريضا بهم ، لكونهم لم يحسنوا صياغة سؤالهم صياغة محددة المراد مُزِيلة للإبهام .

وقديما قيل : حُسْن السؤال نصف العلم ، وإذا أردتَ أن تستخرج ما عند العالم فأحسِنْ سؤاله .

وتعدد الاحتمالات فى البيان النبوى مظهر من مظاهر ثرائه ، لما يتتبعه من تعدد التخريجات وتنوعها ، تنوعاً مرده إلى طبيعة التدبر وطول التفكير ، قياما بحمل بيانه ﷺ على الذى هو أهيأ ، والذى هو أهدى ، والذى هو أتقى وهذا مظهر من مظاهر النصح لسنته ﷺ .

أسلوب الحكيم والتعريض

المتأمل فى أسلوب الحكيم يجد أن ثمة رباطا جامعاً بين أسلوب الحكيم وبين التعريض فى كثير من الشواهد ، لا سيما ما كان على نمط حديثنا هنا .

وهذا الرباط بين الأسلوبين آتٍ من اشتراكهما فى دعـــوة المخاطـــب وحثه على التفكير والتأمل ، واستثارة قواه الذهنية ولفت انتباهه .

فأسلوب الحكيم يتجاوز حدود ما أثاره المخاطب أو السائل من منطوق العبارة ، إلى لفت انتباهه وإثارة تفكيره إلى الأهمّ والأنفع ، فيستنبط بالفحوى والمفهوم أهمية ما وجهه إليه المتكلم ، وكذا فإن دلالة التعريض اســـتتباعية تفهم عن اللفظ لأنه (١) فهو لا يعتمد على المنطوق فى إفادة المعنى المراد ، إنما يستمد هذه الإفادة من فحوى الكلام بمعونة القرائن والسياق .

عن خباب بن الأرت قال " شَكَونا إلى رسولِ الله ﷺ – وهو مُتَوسِّـــد بُردَةً له فى ظِلِّ الكعبة – قلنا له : ألا تَستنصرُ لنا ، ألا تَدعو اللهَّ لنا ؟ قـــال: كان الرَّجلُ فيمن قبلَكم يُحفَرُ له فى الأرض فيُجعلُ فيه ، فيُجـــاء بالمنشـــار فيوضعُ على رأسه فيُشَقُّ باثنتين ، وما يصدُّه ذلك عن دينه . والله ليُتمَّنَّ هذا الأمرَ حتى يَسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حَضْر مَـــوتَ لا يخـــافُ إلا اللهَّ أو الذئبَ على غَنَمِه ولكنكم تَستَعجلون)

البخارى :- المناقب – علامات النبوة حديث ٣٦١٢ ، مناقب الأنصار – باب مالقى النبى ﷺ وأصحابه مـــن المشـــركين بمكـــة حـــديث ٣٨٥٢ ، النسائى: الذينة – مسند أحمد : مسند الكوفيين ، أبو داود : الجهاد .

فقد يُشكِّل هذا القبس مَعْلَما من معالم تربية النفس على علو الهمة ، بعد استنهاضها وتوطين النفس على تحمل أكثر مما تلاقيه وتعانيه ، فقد جاءه ﷺ نفر من أصحابه ، يسألونه طلب النصرة لهم والـــدعاء ، وقـــد لقـــوا مـــن المشركين شدة (ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟) ، وقد كشف تصدر قولهم

---

(١) انظر : التعريض فى القرآن الكريم . د/ إبراهيم الخولى ٥٢/١ . مطـــابع جمعيـــة التنمية الفكرية . أولى سنة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م .

بأداة التنبيه عن شدة حرصهم وبالغ تعلقهم بما جاءوا يطلبونه ، وذلك بما يفيده التنبيه من لفت النظر إلى أهمية ما بعده .

فمجئ أداة التنبيه هنا – كما يقول العينى – (للحَثّ والتحريض)(١) .

فيوجههم ﷺ إلى غير الوجهة التى أرادوها ، وذلك بضرب نماذج لهم من السابقين ، تحملوا فى سبيل دين الله ما يهون أمامه ويقلّ عنده ما جاء الصحابة يَشْكُون منه . بقوله " كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له ... " .

وخرج كلامه ﷺ بهذا مخرج أسلوب الحكيم ، فقد جاءوه يسألونه النصرة والدعاء ، فقصّ عليهم من أنباء ما قد سبق ، فكأنه ﷺ يُبيّنّ لهم أن أمر نصرة هذا الدين والدعاء لهم مقطوع به ، لكن الأجدر بالاهتمام وبالتعلق به هو دفع ثمن هذا النصرة : ثباتاً على أمر الله وتمسكاً بدينه لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله .

ويأتى القَسَمُ النبوى معينا لأسلوب الحكيم فى زيادة التأكيد على قطعية هذه النصرة وحتمية هذا التمكين .

ويفيد أسلوب الحكيم فى مثل هذه الحالة شحذ الهمم واستنهاض العزائم وتقوية الإرادة على استقلال ما ينزل بهم وتهوينه ، فتروّض النفس على تحمل أكثر مما نزل بها ، فيحسن تحملها ، ويجمل صبرها وتقوى عزيمتها .

وهذا – بلا ريب – مسلك من مسالك تربية هذه النفس ، وحسن استخراج طاقتها ومعالجة فتورها ، وردّها عن استعجال الثمرة المرجوة .

ومن بديع أسلوب الحكيم وطرافته هنا أنه جاء موافقاً لخروج الاستفهام على خلاف مقتضى الظاهر فى قوله – " ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ "

---

(١) عمدة القارى ١٦/١٤٤ .

فلم يُقصد بالاستفهام هنا حقيقته ، إنما أريد به الرجاء والالتمـــاس . وورود الكلام على هذا النحو ينمّ عن أدبهم الجمّ – رضى الله عنهم جميعاً – مما لو جاء كلامهم على مقتضى الظاهر مثل (استنصر لنا ، ادع لنا) فالبون بين التركيبيين شاسع .

فبادلهم ﷺ – بخروج جوابه هذا المخرج – ودّا بودّ وتلطفاً بتلطـــف ، وهذا جزء أصيل فى بلاغة أسلوب الحكيم – رغم احتمال غضـــبه ﷺ مـــن استعجالهم نصر الله ، على نحو ما كشفته الرواية الأخرى (... فقلتُ : يـــا رسول الله ، ألا تدعو الله لنا ؟ فقعد وهو مُحْمَرّ وجهه فقال : لقد كـــان مـــن قبلكم ليمشط الحديد ، ما دون عظامه من لحم أو عصب)(١) .

فاحمرار الوجه هنا يحتمل أن يكون من أثر النوم ، ويحتمل أن يكون من الغضب وبه جزم البعض (٢)

فانظر كيف كشف خروج الكلام على هذا النمط عن ســـعة صـــدره ، وجميل حلمه وأدبه ﷺ وبارك عليه ؟ بحيث لم يظهر أثر غضبه هذا – مـــن تعجلهم نصر الله – فى رده عليهم تلطفاً منه ﷺ بهم .

والذى تجدر ملاحظته أن أسلوب الحكيم فى الحديث – موضع الشاهد – جارٍ على نمط عال من أنماط البيان ، وهو التعريض ، فلم يَلْقَهم الرسول ﷺ بقِلّة تحملهم وصبرهم كفاحاً فى وجوههم كأنما يقذفهم به قذفاً ، بل جعل هذا المعنى مطوياً فى فحوى الكلام أو لحنه ، كما كان يقول الإمام أبو جعفر الطبرى – رحمه الله تعالى – عن التعريض إنه من (لحن القول) .

---

(١) فتح البارى ٢٠٢/٧ حديث ٣٨٥٢ .

(٢) ينظر السابق ٢٠٣ .

وارتباط أسلوب الحكيم بالتعريض فى كثير من الشواهد باب لعـــل الله يدخر له باحثاً يستقصيه ويُحْكِمهُ ، وسيجد وراءه أفقاً واسعاً وفقهاً وثـــراءً ، إن شاء الله تعالى .

وكان يمكن أن يقتصر جوابه ﷺ على تذكيرهم بنماذج ممن سبقوهم ، وينتهى التركيب عند قوله ﷺ " وما يصده ذلك عن دينه " دون " والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب ... " لكنه ﷺ لم يشأ أن يَرُدَّهم دون تبشيرهم ، وطمأنتهم بأن المستقبل لهذا الدين ، وله الغلبة والظهور ، وفى هذا من رفع المعنويات ، وملأ النفوس أملاً يبدد ظلمات هذا الواقع البئيس ما فيه .

فجمع لهم أجزاء الزمن الثلاثة :-

الماضى : السحيق بتذكيرهم بمن سبقوهم ، فهم ليسوا وحـــدهم علـــى الدرب .

والحاضر : هم معاينون له ، لأنهم جزء منه .

والمستقبل : وقد دل عليه آخر الحديث " والله ليتمن هذا الأمر ... " .

<u>أسلوب الحكيم والمذهب الكلامى</u> :

وهنا نلمح ارتباط أسلوب الحكيم – لا سيما القسم الثانى منـــه " تلقـــى السائل بغير ما يترقب " – بالمذهب الكلامى (١) وذلك مثل حديث :-

(... وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله ؟ قال : أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل ؟ قلن : بلى ، قال : فذلك من نقصان عقلها ، أليس إذا حاضت لم تصلِّ ولم تصم ؟ قلن : بلى . قال : فذلك من نقصان دينها)(١)

---

(١) وهو (أن يورد المتكلم حجة لما يدعيه على طريق أهل الكلام) الإيضاح وبهامشـــه البغية ٤/٥٠ .

فقد ساق ﷺ قوله " أليس شهادة المرأة ... " حجة على دعوى نقصان عقل المرأة وقوله " أليس إذا حاضت ... " حجة على دعوى نقصان دينها .

أسلوب الحكيم والاستفهام :

وكذا نجد ثمت علاقة وثيقة بين أسلوب الحكيم والاستفهام فالراصد لسمات " أسلوب الحكيم فى بيان النبوة " تستوقفه ظاهرة جديرة بالتأمل وهى " أن يجاب عن السؤال " مثل حديث :" ... متى الساعة ؟ " فيجيبه ﷺ بقوله " وماذا أعددتَ لها ؟ " (٢) .

وأحياناً يأتى الجواب فى صورة سؤال مفحم . وذلك كما فى حديث أم سلمة قالت (جاءت أم سُليمْ إلى رسول الله ﷺ فقالت :- يا رسول الله ، إن الله لا يستحيى من الحق ، فهل على المرأة من غُسْل إذا احتملت ؟ قال النبى ﷺ : إذا رأت الماء . فغطّتْ أم سلمة – تعنى وجهها – وقالت : يا رسول الله : وتحتلم المرأة ؟ قال : نعم ، تربت يمينكِ ، ففيم يشبهها ولدها ؟) (٣) .

فكان مقتضى ظاهر سؤالها " وتحتلم المرأة ؟ " أن تُجاب بـ " نعم "

لكنه ﷺ أجابها بسؤال مُسكت ملزم " ففيم يشبهها ولدها ؟! "

تنبيه المتلقى على الأهمّ ليس الغرضَ الأوحد فى أسلوب الحكيم :

فقد يكون الغرض الرئيس من مفاجأة المخاطب أو السائل وتلقيه بغير ما يتوقع هو " التقرير " ، وذلك كما فى ردّ الرسول – ﷺ – على سؤالهن

---

(١) سبق تخريجه ١٤.

(٢) سبق تخريجه ١٤ .

(٣) البخارى : العلم – الحياء فى العلم . فتح البارى ٢٧٦/١ حديث ١٣٠ .

هنا بسؤال (أليسَ شهادة المرأة مثل شهادة الرجل) وغرض هذه المخالفة هنا هو التقرير المفيد لتركيز الجواب .

وقد يكون الغرض الرئيس من أسلوب الحكيم هو " التوكيد " كما فى حديث عمرو (... مالك يا عمرو ؟ قلت : أردتُ أن أشترط فقال : تشترط ؟ قلت : أن يغفر لى . قال : أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله ؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها وأن الحج يهدم ما كان قبله ؟!) .

وهنا يقول الطيبى (فيه وجوه من التأكيد تدل على أن حكم الهجرة والحج حكم الإسلام ، أحدها : أنه من أسلوب الحكيم ، فإن غرض عمرو من إبائه عن المبايعة الآتى بيانه ما كان إلا حكم نفسه فى إسلامه ، والهجرة والحج زيادة فى الجواب ...) (١) فقد أبرز الطيبى التوكيد هنا كغرض رئيس للأسلوب .

<u>السائل هو المجيب فى أسلوب الحكيم أحياناً</u> :

سبقت الإشارة إلى أن أسلوب الحكيم ينتظم قسمين :-

(أ) تلقى المخاطب بغير ما يتوقع .

(ب) تلقى السائل بغير ما ينتظر ...

وعليه فالسائل هنا شخص والمجيب شخص آخر .

---

(١) شرح مشكاة المصابيح ٤٨٣/٢ ، فيض القدير ١٦٧/٢ .

لكن المدقق فى بيان النبوة يجد أحياناً أن السائل هو المجيب ذاته ، بمعنى أن الرسول ﷺ هو الذى يبتدر الصحابة بالسؤال ، ثم يجيبهم عليه بعد قليل ومن ذلك قوله ﷺ : (أتدرون منْ المفلس ؟)(١) .

وقوله – فيما رواه عنه عبد الله بن مسعود – قال قال رسول الله ﷺ ثم ما تعدون ؟ قال : قلنا : الذى لا يولد له . قال : ليس ذاك بالرقوب ، ولكنه الرجل الذى لم يقدم من ولده شيئاً . قال : فما تعدون ؟ قال : قلنا الذى لا يصرعه الرجال . قال ليس بذلك ولكنه الذى يملك نفسه يملك نفسه ثم الغضب)(٢) .

ففى هذه الشواهد ونظائرها يريد الرسول ﷺ أن يلفت انتباههم أو يصحح لهم مفهومهم تجاه المسئول عنه ، ولم يمنع ذلك من أن يبتدئهم بالسؤال ثم يجيبهم عنه .

اعتقاد المخاطب فى أسلوب الحكيم ليس على درجة واحدة

من السمات البيانية لأسلوب الحكيم فى البيان النبوة أن درجة اعتقاد المخاطب لمخالفة المتكلم له ليست فى درجة واحدة ، بل هى على مراحل وأشواط ودرجات ، ومن لك ما روى عن أبى هريرة – ﷺ – قال : قدم الطفيل بن عمرو على النبى ﷺ فقال : يا رسول الله إنَّ دَوْساً قد عَصَتْ وأَبَتْ ، فادعُ الله عليها . فظن الناس أنه يدعو عليهم فقال :– اللهم اهْدِ دَوْسا وأْتِ بهم .

---

(١) صحيح ابن حبان – ذكر الخبر المصرح بإيجاب النار نعلى السارق والزانى ٢٥٩/١٠ حديث ٤٤١١ .

(٢) مسلم – البر والصلة والآداب – فضل من يملك نفسه عند الغضب .

البخارى : الدعوات – الدعاء للمشركين ، المغـــازى – قصـــة دوس والطفيل بن عمرو الدوسى .

مسلم : فضائل الصحابة – من فضائل غفار وأسلم .

مسند أحمد – من حديث أبى هريرة – ٢٤٣/٢ – صحيح ابن حبـــان ٢٦٠/٣ .

يعد هذا القبس من جملة الشواهد الدالة – وبوضوح – على سمو خلق النبى ﷺ ، كما يُعد كاشفاً عما جُبلت عليه نفسه الكريمة من حب الخير للناس والحرص عليهم والشفقة بهم (فلم يكن ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً ولا لعانـــا ولا منتقماً لنفسه)(١) .

فقد قدم عليه الطفيل بن عمرو الدوسى (٢) بعد أن بعثه الرســـول ﷺ إلى قومه – قائلاً (إن دوساً قد عصت وأبت ...) وفى روايـــة (دعـــوتُ

---

(١) النووى على مسلم ١٥٢/١٦ .

(٢) هو الطفيل بن عمرو الدوسى صاحب النبى ﷺ ، وكان سيداً مطاعاً مـــن أشـــراف العرب ، و" دوس " بطن من الأزد ، وكان يلقب الطفيل " ذا النور " قبل الهجرة بمكة وذلك لأنه قال : يا رسول الله إن دوساً قد غلب عليهم الزنا فادع الله عليهم . فقال ﷺ: اللهم اهد دوساً . ثم قال يا رسول الله : ابعث بى إليهم واجعل لى آية . فقال : اللهـــم نور له ، فسطع نور بين عينيه . فقال : يا رب إنى أخاف أن يقولوا مثلة ، فتحولـــت إلى طرف سوطه ، فكانت تضئ فى الليلة المظلمة .

وكان الطفيل امرءا شاعراً ، جاهد مع رسول الله ﷺ ثم مع خلفائـــه الراشـــدين وقتل فى حروب الردّة باليمامة .

انظر : سير أعلام النبلاء للذهبى ٣٤٥/١ ط مؤسسة الرسالة سنة ١٤١٣هـــ – التاسعة تحقيق شعيب الأرناؤوط ، محمد نعيم العرقسوســـى . والاســـتيعاب فـــى =

دوساً إلى الإسلام ، فأبتْ علىّ وتعاصتْ ، ثم قَدمْتُ علـــى رســـول الله ﷺ فقُلتُ: غلت على دوس الزنى والربا فادعُ عليهم)(١) .

وكان المنتظر أن يجيبه ﷺ بما طلب ، لكنه ﷺ عدل بالجواب عن هذا المنتظر ، إلى ما هو أهل من مكارم أخلاقه ورحمته مما ينبع مـــن مشـــكاة النبوة ، وإلى ما هو أليق بالمسلم – خاصة الدعاة منهم إلـــى الله – ومســـلك النبى ﷺ هذا يمثل مسلكاً تربوياً رشيداً يعد منارة لحملة رسالته .

فدعا لهم " اللهم اهد دوساً بهم " بدلا من أن يدعو عليهم .

فخرج الكلام من هذه الزاوية مخرج الأسلوب الحكيم ، حيـــث فاجـــأ المتكلم مخاطبه بغير ما يتوقع ، وليس هذا فحسب بل إن بعـــض الروايـــات الأخرى للحديث لتكشف أن المخاطب كان متوقعاً الدعاء عليهم غاية التوقـــع وأكده ، ولم يَدُرْ بخلده خروج الدعاء عن هذا المقتضى ومنها :-

(... فرفع رسول الله ﷺ يديه فقُلتْ : هلكتْ دوس . فقال اللهـــم اهـــد دوساً وائت بهم)(٢) وفى رواية (... فادع الله عليهم ، فاستقبل رســـول الله ﷺ القبلة ورفع يديه ، فقال الناس : هلكوا . فقال : اللهم اهد دوســـاً وائـــت بهم)(٣) وفى أخرى (... فرفع النبى ﷺ يديه فقال الرجل : إنا لله وإنا إليـــه

=معرفة الأصحاب لابن عبد البرّ – ٧٥٩/٢ – دار الجيل بيروت سنة ١٤١٢هـــ أولى – تحقيق على محمد البجاوى .

(١) سير أعلام النبلاء ٣٤٥/١ .

(٢) مسند أحمد ٥٠٢/٢ .

(٣) السابق ٢٤٣/٢ .

راجعون ، هلكت دوس ورب الكعبة . فرفع النبى ﷺ يديه وقال : اللهم اهد دوساً)(١) .

ولا شك أن قوة مفاجأة المخاطب – والدلالة هذه – لها مالها من أثر فى لفت انتباهه إلى المعدول إليه ، وهو الدعاء لهم بدلاً من الدعاء عليهم .

والحديث بهذا يرصد معلما بارزاً من معالم أسلوب الحكيم فى البيان النبوى ذلك أنه مثل ظاهر جداً لاعتقاد المخاطب حين يقوى ويشتد ويستحكم، حتى يرتقى عنده مراقى اليقين أن المعصوم ﷺ سيوجه حديثه الشريف الوجهة التى يرتقبها المخاطب ويتوقعها ، بل ويكاد يتيقنها ، فإذا ما جاء البيان النبوى على غير ما قوى واستحكم فى نفسه ويقينه ، كان ذلك أبلغ وأقوى وأروع ...

ويستنبط من هذا أن اعتقاد المخاطب فى أسلوب الحكيم ليس على درجة واحدة بل هو على مراحل وأشواط ودرجات .

وهذا قريب الوشائج مما ذهب إليه البلاغيون وطبقوه فى فكرة توكيد الكلام على حسب حال المخاطب وقسموه فى ضوء هذا إلى (خالى الذهن – الشاك – المتردد – المنكر) .

وبين دفتى هذا البحث شواهد رصدت درجات اعتقاد المخاطب ومخالفة البيان النبوة لهذا الاعتقاد مخالفة توافق حال المخاطب ودرجته قوة وضعفاً . (٢)

---

(١) صحيح ابن حبان ٣/٢٦٠ .

(٢) من أمثلة خفوت عنصر المفاجأة بين المتكلم والمخاطب هنا – حتى إنه يكاد يتلاشى – حديث " وما نقصان ديننا وعقلنا ؟ " فالنساء ينتظرو جواباً وتوضيحاً وقد حدث ..=

ثم يكتسب الأسلوب الحكيم هنا فخامته من ناحية أخرى وهى :

اتساقه مع أمر النبى ﷺ للطفيل – حين بعثه داعياً إلى قومه – بالترفق بهم والتحنن عليهم وذلك قوله (اخرج إلى قومك فادعهم وارفق بهم)(١) فلم يخالف قوله ﷺ فعله ، وحاشاه ذلك ﷺ .

وتبرز قيمة هذا المسلك من زاوية ثالثة ، وهى أنها جاءت محققة لانطباعات المخاطب " الطفيل بن عمرو " ومؤكدة لرأيه الذى كَونّه من أول لقاء له برسول الله ﷺ ، حين قدم عليه مبايعاً على الإسلام ، وهو ما يكشفه قوله (ما سمعتُ كاليوم لفظاً أحسن ولا أجمل منه ، فلم أسمع قط كلاماً أحسن من كلام يتكلم به)(٢) .

هذا ولم ينهض أسلوب الحكيم وحده ببيان رأفته ﷺ وشفقته هنا ، فقد آزره – نهوضاً بذلك – النسق الذى ورد عليه دعاؤه ﷺ " اللهم اهد دوساً وأت بهم "

فقد شمل الدعاء لدوسٍ القبيلة كلها ولم يتقصر على المكلفين شرعاً ، مبالغة فى حرصه ﷺ على شمول هداية الله لهم .

=غاية ما فى الأمر أن جوابه ﷺ وقع فيه تقديم وتأخير ، وهو نوع من أنواع المخالفة لكن ليس لها صفة البروز كما لحديث الباب هنا .

(١) صفوة الصفوة – عبد الرحمن بن على بن محمد أبو الفرج ٥١٠/٥٩٨هـ ، ٦٠٢/١ط دار المعرفة – بيروت – ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م – الثانية تحقيق محمود فاخورى – د/ محمد رواس قلعجى .

(٢) الاستيعاب ٧٥٩/٢ ، سير أعلام النبلاء ٣٤٥/١ .

مناسبة أسلوب الحكيم لحال المخاطب والمقام

يقولون إن عين البلاغة هى أن يأتى الكلام مناسباً لمقتضى حال المخاطب والمقام الذى استدعاه ، وهنا نجد أسلوب الحكيم قد فرضه ودعا إليه حال المخاطب واستدعاء المقام ، فنجد أسلوب الحكيم قد جاء مراعيا هذه الخصوصيات كلها فى جانب المخاطب والمقام على سواء . ومن ذلك ما روى عن أنس بن مالك – ﷺ – قال :- (مَرَّ النبىُّ ﷺ بامرأة تَبْكى عند قَبرْ فقال : اتقى الله واصْبِرى . قالت : إليك عَنىِّ ، فإنك لم تُصبْ بمصيبتى ولم تعرفه . فقيل لها : أنه النبى ﷺ ، فأتت النبى ﷺ فلم تجد عنده بوابين ، فقالت : لم أعرفك . فقال : إنما الصبر عند الصدمة الأولى)

البخارى : الجنائز – زيارة القبور – حديث ١٢٨٣ . مسلم : الجنائز – الصبر عند الصدمة الأولى حديث ٩٢٦ ، أبو داود : الجنائز – الصبر عند المصيبة حديث ٣١٢٤ ابن ماجة : ما جاء فى الجنائز .

الترمذى : الجنائز – حديث ٩٨٨ النسائى : الجنائز ٢٢/٤ .

سياق الحديث – كما هو ظاهر – يدور فى فلك الابتلاء بفقد الأهل والأحباب وما يحدثه هذا من لوعة الفراق . فقد مرّ النبى – ﷺ – على امرأة (تبكى على صبى لها)(١) – وولد الرجل ثمرة قلبه كما يقولون – ولنا أن نتخيل ما تُخَلّفه هذه الرزية من فقد الصواب ومن أسى ، فبدأها – ﷺ – بهذا الإنشاء الطلبى – وصورته هنا " الأمر " – بقوله لها " اتقى الله واصبرى " . ويأتى الأمر هنا فى مقامه من حيث :-

---

(١) مسلم – الجنائز .

(كان فى بكائها قدر زائد من نوح أو غيره ، ولهذا أمرها بـــالتقوى ، ويؤيده ما جاء فى الرواية الأخرى " فسمع منها ما يكره فوقف عليها)(١) .

ومعنى أمرها بالتقوى والصبر هنا أى (لا تجزعى وخـــافى غضـــب الله، واصبرى حتى تثابى)(٢) ولما كان الدافع على الصبر هـــو تقـــوى الله ومخافة عقابه قدم الأمر بالتقوى .

فما كان من المرأة إلاّ أن جفا قولها وغلظ ردّها عليه - ﷺ - وهـــى (جاهلة بمن يخاطبها وظانة أنه من آحاد الناس)(٣) بقولها " إليك عنى " (*) ثم تعلل ذلك بقولها " فإنك لم تُصبْ بمصيبتى " وفى رواية " فإنك خِلوْ مـــن مصيبتى " (٤) وفى أخرى (يا عبد الله إنى أنا الحرى الثكلى ، ولـــو كنـــت مصاباً عذرتنى)(٥) فيكرر ﷺ أمره لها بالتقوى والصبر (قال يأمة الله اتقى الله واصبرى)(٦) فيزداد ردها غلظة وبداوة (يا عبد الله أسمعتنى فانصرف عنى)(٧) . فينصرف عنها ﷺ ، بعد أن أدى ما عليه من النصح تماماً على الذى أحسن فيأتيها من يخبرها أن الذى خاشنته هو رسول الله - ﷺ - فتأتيه وقد أخذها (مثل الموت من شدة الكرب الذى أصابها لما عرفـــت أنـــه ﷺ

---

(١) فتح البارى ١٧٨/٣ .

(٢) شرح مشكاة المصابيح للطيبى ١٤١٩/٤ .

(٣) عون المعبود ٢٧٤/٨ .

(*) ومعناها : تنح عنى وباعدنى (اللسان ، الغريب لابن قتيبة) .

(٤) البخارى : الأحكام (ما ذكر أن النبى ﷺ لم يكن له بواب) فتح البارى ١٤٢/١٤ .

(٥) مسند أبى يعلى ٤٥٣/١٠ - ٤٥٤ .

(٦) الكامل فى ضعفاء الرجال ٣٦٨/٣ .

(٧) السابق .

خجلاً منه ومهابة)(١) وتعتذر مصدرة كلامها بالقسم (والله ما عرفتك)(٢) وفى رواية (أنا أصبر . أنا أصبر)(٣) .

فيُهدئ الرسول – ﷺ – من روعها بصرف الكلام عن وجهته " إنما الصبر عند الصدمة الأولى " ، وتأتى بلاغة ردّه – ﷺ – من (أنها لما جاءت طائعة لما أمرها به من التقوى والصبر ، معتذرة عن قولها الصادر عن الحزن بيّن لها أن حق هذا الصبر أن يكون فى أول الحال ، فهو الذى يترتب عليه الثواب)(٤) .

فجاء جوابه – ﷺ – على طريقة أسلوب الحكيم ، ليلفت نظرها إلى الأليق والأولى بالاهتمام يعنى (دعى الاعتذار منى ، فإن من شيمتى أن لا أغضب إلا لله ، وانظرى إلى تفويتك من نفسك الثواب الجزيل والكرامة ، والفضل من الله تعالى بالجزع وعدم الصبر عند فُجاءة الفجيعة)(٥) . ولعل هذا يُقوّى ويُجسّد ما ورد فى الحديث الآخر :- (ما انتقم ﷺ لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمات الله)(٦) .

وجاء أسلوب الحكيم مناسباً لمقتضى الحال ، من حيث كان فيه تلطف وترفق بالمرأة التى تعانى لوعةَ الفراق ، وأسى مخاشنته ﷺ فى ردها عليه ، فلم يشأ ﷺ أن يجمع عليها معاناة فوق معاناة .

---

(١) فتح البارى ١٧٨/٣ .

(٢) مسند أبى يعلى ٤٥٣/١٠ ، والبيان والتعريف ٢٠٦/١ .

(٣) فتح البارى ١٧٨/٣ .

(٤) فتح البارى ١٧٨/٣ .

(٥) شرح مشكاة المصابيح للطيبى ١٤١٩/٤ .

(٦) فتح البارى ١٧٢/١١ ، التمهيد لابن عبد البر ٢٥٦/٦ .

وزيادة على ذلك ، فإنه يمكن القول إن أسلوب الحكيم قد اكتسب مناسبته للمقام ، وبالتالى بلاغته ، من حيث مناسبته لطبيعة المخاطب هنا ، وأعنى به المرأة فإذا كان (بيان النبى - ﷺ - للمرأة خاصة تكاثرت فيه عوامل اللطف واللين - حتى فى مقام الزجر - فاختيار اللفظة الرقيقة والأسلوب العذب ، والأداة الباعثة على اللطف هى السمة الغالبة على بيانه - ﷺ - لهن)([1]) فكيف الحال بالمرأة المكلومة المفجوعة فى فلذة كبدها هنا !

ثم إن إيراد الأسلوب الحكيم - وهو نوع من أنواع المخالفة للظاهر - فيه مناسبة واضحة للسياق التركيبى الوارد عليه الحديث ، فقد بدأ التركيب بالإنشاء " اتقى الله واصبرى " ، ثم ختم بالخبر " إنما الصبر عند الصدمة الأولى " . ومناسبة هذا التغاير والتلوين للأسلوب يأتى من أن الأمر ناسب حال المرأة ، وقد بدر منها ما بدر من السخط والتبرم والضجر .

فلما جاءت معتذرة آسفة على ما بدر ناسبها التخفيف عنها ورفع مؤونة الحرج عنها .

وهكذا يكشف لنا أسلوب الحكيم كيف كان جوابه - ﷺ - ألطف ، وأدلّ على ذوقه العالى - ﷺ - وأكرم بالمخاطب وألين وصدق ربنا (وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)([2]) .

ومعنى قوله - ﷺ - " إنما الصبر عند الصدمة الأولى " (إنما الصبر الشاق على النفس الذى يعظم الثواب عليه إنما هو عند هجوم المصيبة

---

(١) من بلاغة النبى ﷺ فى بيانه عن المرأة - دراسة فى الصحيحين ص ٤٩٩ - مخطوط دكتوراه - للباحث سعيد أحمد جمعة - كلية اللغة العربية بالقاهرة ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م .

(٢) آل عمران : ١٥٩ .

وحرارتها ، فإنه يدل على قوة القلب وتثبته فى مقام الصبر ، وأما إذا بردت حرارة المصيبة فكل أحد يصبر إذ ذاك)(١)

---

(١) تفسير القرطبى ١٧٤/٢ عند تفسير الآية " ١٥٥ " من سورة البقرة .

الخاتمـــــــة

الحمد لله بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله وسلم وبارك على معلـــم الناس الخير سيدنا محمد بن عبد الله وآله وصحبه ومن اتبع هداه .

ففى ختام هذه السياحة فى حدائق النبوة النضرة فى ســياق " أســلوب الحكيم " يليق بنا أن نجمل أهم نتائج هذا البحث وهى :-

(١) من مظاهر أسلوب الحكيم فى بيان النبوة أن التركيب قد يشى وينمّ عن وجه الجواب من بعيد ، وكأنه يمسّه مساً خفيفاً ، فهو أشــبه بالتســهيم والإرصاد .

(٢) مفاجأة المخاطب أو السائل فى أسلوب فى بيان النبوة لم تكن فى درجة واحدة فهناك أحاديث يحسّ فيها بعنصر المفاجأة ، وعدم ترقب المخاطب أو السائل ، بينما نجد أحاديث لا نكاد نحس بهذه المفاجأة وعدم التوقع ، حتى ليخَيل أن السامع ينتظر هذا أو قريباً منه ، وما بين هذين النوعين درجات لهذه المخالفة تتلون بلون مقامها والدافع عليها .

(٣) الأمور التى لفت النبى ﷺ عناية المخاطب إليها ناســبت حــال كــل مخاطب.

(٤) تنبيه المخاطب على الأهم ليس هو الغرض الوحيد فى أسلوب الحكيم ، بل هناك أغراض أخرى .

(٥) من مظاهر أسلوب الحكيم فى بيان النبوة أن الرسول ﷺ أحيانــاً هــو المستفهم لأصحابه .

(٦) جاء الجواب فى أسلوب الحكيم أحياناً على هيئة السؤال .

(٧) هناك ارتباط وثيق بين " أسلوب الحكيم " وبين " التعـــريض " كشـــف البحث عن بعض جوانبه .

وبعـــــد

فلعلى أكون قد وفقت فى كشف اللثام عن أحد فنون البلاغة التى لم تنل حظاً وافراً من الاهتمام ، ولذا فهى تحتاج كثيراً من الجهد لإبراز وتجلية ما تكتنفه من معانى الجدة والبراعة والتمكن من ناصية الكلمة .

ولا أزعم أننى قد قلت الكلمة الأخيرة فى بلاغة أسلوب الحكيم ، وأنه ليس لمستزيد متسع ، أو أننى أتيت بما لم تأت به الأوائـــل ، فحســـبنا أنهـــا إشارات وبدايات ترشد وتنير إلى دراسة فنون بلاغتنا دراسة قائمة على الفهم الواعى واستكناه أسرارها ووظيفتها الاجتماعية فى دنيا الناس .

فإن يكن ثمت توفيق فمن الله ، وإن تك الأخرى فأسأله تعالى أن يقبل العثرة ويسدد الخُطى ويعفو عن الخطأ ، وألا يحرمنا بهذا العمل شفاعة نبينا محمد ﷺ .

والحمد لله رب العالمين

كتبه

معوض محمد الخولى

مدرس بقسم البلاغة والنقد

فهرس الأحاديث موضع الدراسة

م	الحديث	الصفحة
١	ألا أدلكما على ما هو خير لكم من خادم	٥٣
٢	ألا نغزو ونجاهد معكم ؟ فقال : لكن أحسن الجهاد وأجملـه الحج . حج مبرور	٦٠
٣	أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله	١٥
٤	إنما الصبر عند الصدمة الأولى	٨٣
٥	أى المال خير فنتخذه ؟ فقال : أفضله لسان ذاكـر وقلـب شاكر وزوجة مؤمنة	٥١
٦	زودك الله التقوى ... وغفر ذنبك ... ويسر لك الخير حيـث كنت	٣٨
٧	فقال : رسول الله متى الساعة قائمة ؟ قـال : ويلـك ومـا أعددت لها ؟	٣٠
٨	كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له فى الأرض فيجعل فيه	٧٢
٩	اللهم ارحم المحلقين	٤١
١٠	اللهم اهد دوساً وأت بهم	٨٠
١١	ما منكم من أحد ، وما من نفس منفوسة إلا كتب مكانها من الجنة والنار	٥٦
١٢	ما يلبس المحرم الثياب ؟ ... لا يلبس القمص ولا العمائم ولا السراويلات	١٨
١٣	الناس معادن ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا	٦٨

م	الحديث	الصفحة
١٤	والذى نفس محمد بيده آنيته أكثر من عدد نجوم السماء	٦٤
١٥	وتحتلم المرأة ؟ قال : نعم ، تربت يمينك ، ففيم يشبهها ولدها	٧٦
١٦	وما نقصان دينتا وعقلنا يا رسول الله ؟ قال : أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل ؟	١٥
١٧	ويحكك إن الهجرة شأنها شديد	٤٧

فهرس المصادر والمراجع

١- الإصابة فى تمييز الصحابة – ابن حجر العسقلانى – (٧٧٣-٨٥٢) دار الجيل – بيروت ١٤١٢ – ١٩٩٢ – الأولى – ت: على محمد البجاوى

٢- إكمال إكمال المعلم للإمام الأبىّ مع مكمل إكمال للسنوسى . ضبط وتصحيح محمد سالم هاشم . ط دار الكتب – أولى ١٤١٥هـ.

٣- الإيضاح مع البغية – مكتبة الآداب ١٤١٢هـ ١٩٩١م .

٤- البيان والتبين – الجاحظ (١٥٠ – ٢٥٥هـ) نشر مكتبة الخانجى . ت: عبد السلام هارون . خامسة ١٤٠٥هـ .

٥- البيان والتعريف فى أسباب ورود الحديث الشريف – إبراهيم بن محمد الحسينى (١٠٥٤-١١٢٠) دار الكتاب العربى – بيروت – ١٤٠١هـ ت: سيف الدين الكاتب .

٦- التاريخ الكبير – البخارى (١٩٤-٢٥٩) دار الفكر – ت: السيد هاشم الندوى

٧- التبيان للطيبى ط. عالم الكتب .

٨- تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى (محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المبار كفورى أبو العلا (١٢٨٣-١٣٥٣هـ) دار الكتب العلمية – بيروت .

٩- الترغيب والترهيب من الحديث الشريف (عبد العظيم بن عبد القوى المنذرى (٥٨١-٦٥٦هـ) دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١٧هـ – الأولى ت: إبراهيم شمس الدين .

١٠- تفسير البيضاوى وبهامشه حاشية الشهاب الخفاجى – دار صادر بيروت . بدون

١١- تفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرح القرطبى أبو عبد الله . ت: ٦٧١هـ - دار الشعب - القاهرة - الثانية ١٣٧٢هـ . ت: أحمد عبد العليم البردونى.

١٢- التمهيد لما فى الموطأ من المعانى والأسانيد (أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمرى (٣٦٨-٤٦٣) نشر : وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب ١٣٨٧هـ . ت: مصطفى بن أحمد العلوى ، محمد عبد الكبير البكرى .

١٣- جامع العلوم والحكم فى شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم - أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلى (ت: ٧٥٠هـ) دار المعرفة - بيروت ١٤٠٨هـ الأولى .

١٤- الجنى الدانى - للمرادى - منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت - ط ثانية ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م ، ت: د/ فخر الدين قباوة ، محمد نديم فاضل .

١٥- الحركة الأسلوبية د/ عبد الرازق فضل سنة ١٩٩٦م بدون ط .

١٦- خصائص التراكيب د/ محمد أبو موسى - ط: دار التضامن ١٩٨٠م .

١٧- خلاف الظاهر فى الدعاء على المخاطب دراسة بلاغية فى السنة النبوية - د/ إبراهيم الهدهد - أولى ١٤٢١هـ بدون ط .

١٨- دلائل الإعجاز - للإمام عبد القاهر - مكتبة الخانجى ١٤١٣هـ ١٩٩٢م ط ثالثة . تحقيق الشيخ محمود شاكر .

١٩- الرسائل البلاغية لابن كمال باشا - القسم الثانى - مخطوط ماجستير - لطفى قنديل السيد - كلية اللغة العربية - القاهرة .

٢٠- الزهد لابن حنبل (أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانى (١٦٤-٢٤١هـ) دار الكتب العلمية - بيروت ١٣٩٨هـ .

٢١- سنن ابن ماجة (٢٠٧-٢٧٥) دار الفكر - بيروت . ت: محمد فؤاد عبد الباقى .
٢٢- سنن أبى داود (٢٠٢-٢٧٥) دار الفكر . ت: محمد محيى الدين عبد الحميد .
٢٣- سنن الترمذى (٢٠٩-٢٧٩) دار إحياء التراث العربى - بيروت - ت: أحمد محمد شاكر وآخرون .
٢٤- سنن الدارمى - عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمى (١٨١-٢٥٥) دار الكتاب العربى - بيروت - ١٤٠٧ - أولى - ت: فؤاد زمرلى - خالد السبع العلمى ط دار الكتب العربى - أولى - ١٩٨٧م.
٢٥- سير أعلام النبلاء . الذهبى (٦٧٣-٧٤٨) مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤١٣هـ التاسعة - شعيب الأرناؤوط ، محمد نعيم العرقسوسى
٢٦- شرح الزرقانى على موطأ الإمام مالك - محمد بن عبد الباقى بن يوسف الزرقانى (ت١١٢٢هـ) دار الكتب العلمية - بيروت - ١٤١١هـ أولى .
٢٧- شرح الطيبى على مشكاة المصابيح المسمى " الكاشف عن حقائق السنن " ت: د/ عبد الحميد هنداوى ط. مكتبة نزار الباز - مكة ، الرياض .
٢٨- شروح التلخيص - دار السرور - بيروت .
٢٩- صحيح ابن خزيمة - محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمى النيسابورى (٢٢٣-٣١١) المكتب الإسلامى - بيروت - ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م ت: د/ محمد مصطفى الأعظمى .
٣٠- صحيح مسلم بشرح النووى - دار الريان للتراث - القاهرة - أولى ١٤٠٧هـ .

٣١- صفوة الصفوة – عبد الرحمن بن على بن محمد أبو الفرج ابن الجوزى (٥١٠-٥٩٧) دار المعرفة – بيروت ١٣٩٩ – ١٩٧٩ ط – ثانية – ت: محمود فاخورى – د/ محمد رواس قلعجى .

٣٢- طيف الخيال لشريف المرتضى ت: محمد سيد كيلانى ط . مصطفى الحلبى سنة ١٩٥٥م

٣٣- عارضة الأحوذى بشرح صحيح الترمذى – ابن العربى المالكى – ط دار الباز للطباعة والنشر .

٣٤- عقود الجمان للسيوطى – المطبعة الشرقية – ١٣٠٥هـ

٣٥- علم المعانى د/ بسيونى فيود – مؤسسة المختار للنشر والتوزيع – ط أولى ١٤١٩ – ١٩٩٨م

٣٦- عون المعبود شرح سنن أبى داود – محمد شمس الحق العظيم آبادى أبو الطيب – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٤١٥ – الثانية .

٣٧- فتح البارى بشرح صحيح البخارى – ابن حجر العسقلانى (٧٧٣-٨٥٢) المكتبة السلفية بالقاهرة – ثالثة – ١٤٠٧هـ ت: محب الدين الخطيب

٣٨- فيض القدير شرح الجامع الصغير عبد الرؤوف المناوى – المكتبة التجارية الكبرى – مصر – ١٣٥٦هـ – أولى .

٣٩- الكامل فى ضعفاء الرجال (عبد الله بن عدى بن عبد الله بن محمد أبو أحمد الجرجانى (٢٧٧-٣٦٥) دار الفكر – بيروت ١٤٠٩-١٩٨٨ – الثالثة ت: يحيى مختار غزاوى .

٤٠- لسان العرب – ط: دار صادر – بدون تاريخ .

٤١- المختار من كنوز السنة د/ محمد عبد الله دراز تقديم : بخارى عبده ط: دار الأنصار .

٤٢- المستدرك على الصحيحين – محمد بن عبد الله أبو عبـــد الله الحـــاكم النيسابورى (٣٢١-٤٠٥) دار الكتب العلمية – بيروت – (١٤١١هـــ ١٩٩٠) أولى . تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا .

٤٣- مسند أبى يعلى – أحمد بن على بن المثنى أبو يعلى الموصلى التميمى (٢١٠-٣٠٧) دار المأمون للتراث – دمشـــق – ١٤٠٤ – ١٩٨٤ – أولى – ت: حسين سليم أسد .

٤٤- مسند الإمام أحمد بن حنبل – مؤسسة قرطبة – مصر .

٤٥- المطول فى شرح تلخيص المفتاح – سعد الدين التفتـــازانى – نشـــر المكتبة الأزهرية للتراث – القاهرة – مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠هـــ .

٤٦- مظاهر الطبيعة فى الصحيحين دراسة بلاغية – مخطوط دكتـــوراه . صلاح حبيب سليمان – كلية اللغة العربية بإيتاى البارود – ٢٠٠٥م

٤٧- المعجم الأوسط – أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى (٢٦٠-٣٦٠) دار الحرمين – القاهرة ١٤١٥هـــ تحقيق : طارق بن عوض الله بـــن محمد ، عبد المحسن بن إبراهيم الحسينى .

٤٨- المعجم الكبير – أبو القاسم الطبرانى – نشر : مكتبة العلوم والحكم – الموصل ١٤٠٤ – ١٩٨٣ – ثانية – تحقيق : حمدى بن عبد المجيـــد السلفى .

٤٩- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها د/ أحمد مطلوب – ط: المجمع العلمى العراقى ١٤٠٣هـــ ١٩٨٣م .

٥٠- مفتاح العلوم – السكاكى – تعليق نعيم زرزور – ط دار الكتب العلمية – ثانية ١٤٠٧هـــ – ١٩٨٧م .

٥١- من بلاغةِ النبى ﷺ فى بيانه عن المرأة – دراسة فى الصحيحين مخطوط دكتوراه – للباحث سعيد أحمد جمعة – كلية اللغة العربية بالقاهرة ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م .

٥٢- موطأ الإمام مالك (٩٣-١٧٩هـ) دار إحياء التراث العربى – ت: محمد فؤاد عبد الباقى .

٥٣- النهاية فى غريب الحديث والأثر (مجد الدين بن الأثير) ط: دار الكتب – أولى – ١٤١٨هـ تعليق أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة .

٥٤- نوادر الأصول فى أحاديث الرسول (محمد بن على بن الحسن أبو عبد الله الحكيم الترمذى) دار الجيل – بيروت ١٩٩٢ – الأولى – ت: عبد الرحمن عميرة .

فهـــــرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
المبحث الأول : مدخل إلى أسلوب الحكيم	٥
تحرير المصطلح : الأسلوب الحكيم أم أسلوب الحكيم ؟	٥
نظرة فى تسمية أسلوب الحكيم بالمغالطة	٧
أسلوب الحكيم من أى علوم البلاغة ؟	٨
بلاغة أسلوب الحكيم	٨
نصيب المخاطب من بلاغة أسلوب الحكيم	١٠
المقامات التى يرد فيها أسلوب الحكيم	١١
المبحث الثانى : وقفة مع الطيبى فى أسلوب الحكيم	١٣
المبحث الثالث : من سمات أسلوب الحكيم فى بيان النبوة	١٨
أسلوب الحكيم طريق من طرق تعليم كيفية صياغة السؤال	١٨
أسلوب الحكيم والترفق بالمخاطب	٢٣
مخالفة المتكلم لمخاطبه فى أسلوب الحكيم درجات	٢٩
التدرج فى مخالفة المتكلم لمخاطبه	٣٨
تكرار الطلب مع تكرار مخالفة الجواب	٤١

الموضوع	الصفحة
سبق أسلوب الحكيم بما يؤذن بالمخالفة	٤٦
تضام بعض الأساليب مع أسلوب الحكيم فى الترفق بالمخاطب	٤٩
أسلوب الحكيم وتوجيه السائل إلى ما يستطيعه	٥١
أسلوب الحكيم وتصحيح المفاهيم	٥٦
أسلوب الحكيم وتوسيع المفهوم	٦٠
أسلوب الحكيم وتوليد المعانى	٦٤
أسلوب الحكيم وبعض الفنون البلاغية الأخرى :	٦٨
أسلوب الحكيم وسوق المعلوم مساق غيره لنكتة .	٦٨
أسلوب الحكيم والتعريض	٧١
أسلوب الحكيم والمذهب الكلامى .	٧٥
أسلوب الحكيم والاستفهام .	٧٦
تنبيه المتلقى على الأهم ليس الغرض الأوحد فى أسلوب الحكيم	٧٦
السائل هو المجيب أحياناً فى أسلوب الحكيم	٧٧
اعتقاد المخاطب فى أسلوب الحكيم ليس على درجة واحدة	٧٨
مناسبة أسلوب الحكيم لحال المخاطب وللمقام	٨٣

الموضوع	الصفحة
الخاتمة	٨٨
فهرس الأحاديث موضع الدراسة	٩٠
فهرس المصادر والمراجع	٩٢
فهرس الموضوعات	٩٨